٢

سلسلة

رحلة أسرار

أبي حامد الغَزّالي

تأليف :

حُجَّة الإسلام بركة الأنام الإمام

أبي حامد الغزّالي

تحقيق وتقديم :

محمد مصطفى الساكت

كتاب للنشر والتوزيع

دار زحمة كتاب للثقافة والنشر

كتاب زحمة للنشر والتوزيع

اسم الكتاب: رحلة أسرار حجة الإسلام أبي حامد الغزَّالي – ج ٢

اسم المؤلف: أبي حامد الغزَّالي

تحقيق وتقديم: محمد مصطفى الساكت

رقم الإيداع: ٢٠٢١ /٢٣٤١٨

الترقيم الدولي: ٨-٢٦٥-٨٣٥-٩٧٧-٩٧٨

العنوان: ١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

الفيسبوك: دار زحمة كتاب للنشر

التليفون: ٠٠٢٠١٢٠٥١٠٠٥٩٦ / ٠٠٢٠١١٠٠٦٦٢٥٩٥

البريد الإليكتروني: za7ma.kotab@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بعد الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وعلى آله وصحبه ومَن والاه.

قد جمعتُ بين رسالتي (أيها الولد) و(كيمياء السعادة) في الحلقة الأولى، وهذه هي الرسالة الثالثة (بداية الهداية)، ذيَّلتُها برسالة (القواعد العشرة) في الحلقة الثانية من حلقات هذه السلسلة، وحتى لا تكون هذه السلسلة الغزَّالية فيها من الغرابة شيء على القارئ العزيز، فيجب عليَّ أن أوضِّحَ أن الإمام الغزَّالي أعظم مَن جمع بين فقه القلوب (التصوف) وفقه الجوارح (الفقه) تحديدًا على المذهب الشافعي؛ لأنه كان شافعيًّا. فكان منهجه ألا يكون الفقه جامدًا على الأحكام الفقهية وحسب، وأن هذا حلال، وذاك حرام، وأن هذا الفعل مندوب، وذاك مستحب أو مكروه أو مباح؛ بل أصقلَ الفقهَ بجواهر التصوف وأنواره، واهتم بطهارة الظاهر والباطن مع الخالق ﷻ، واهتم بالمعاملة الظاهرية مع الخلق، والمعاملة الباطنية مع الله ﷺ.

وفي هذه الحلقة، أعرضُ عليكم عرضًا موجزًا للرسالة التي بين أيدينا (بداية الهداية) من قوله مؤلفها رحمه الله تعالى، فقال: (ما بداية الهداية؟ وما نهايتها؟ بدايتها ظاهرة التقوى، ونهايتها باطنة التقوى، فلا عاقبة إلا بالتقوى، ولا هداية إلا للمتقين).

صُنِّفَتْ هذه الرسالة ضمن الكتب الفقهية (في الفقه الشافعي)، لكن وكان جُلّ اهتمام حُجَّة الإسلام الغزَّالي ﷺ بعلم القلوب وأسراره وأنواره، طغى فيها الجانب الصوفي على الجانب الفقهي. تعتبر هذه الرسالة مقدمة لكتاب (إحياء علوم الدين)، وقد قسَّمه الغزَّالي إلى ثلاثة أقسام: (القسم الأول): جاء في الطاعات، وفيه آداب النوم، والاستيقاظ منه ودخول الخلاء، والوضوء، والغسل، والتيمم، والخروج من المسجد ودخوله، وما بعد طلوع الشمس إلى الزوال، وآداب الاستعداد لسائر الصلوات، التي هي أصل الدين، وأحد أركان الإسلام، وذكر فيه ما يتعلق بالإمامة، والاقتداء والجمعة، والصيام. (القسم الثاني): تحدث فيه عن اجتناب المعاصي، وبين فيه معاصي القلب، وأنها أخطر من معاصي الجوارح. (القسم الثالث): تحدث فيه عن آداب الصحبة والمعاشرة مع الخالق سبحانه ومع الخلق، وآداب عامة جامعة.

ومما قمتُ به في عمل التحقيق:

١- تخريج الآيات القرءانية.
٢- تخريج الأحاديث النبوية.
٣- شرح الكلمات المُبهَمة التي قد يخفى معناها على القارئ.
٤- ضبط بعض الكلمات بالتشكيل حتى لا يُفْهَم غير مرادها.
٥- التعليق على بعض الجمل التي قد تشكل على القارئ.

أما فيما يتعلق بتحقيق رسالة (بداية الهداية)، اعتمدتُ على طبعة قديمة من مكتبة جامعة تورنتو - كندا، عليها ختم بتاريخ ٧/ ١٩٦٨م، وطُبِعَتْ هذه الطبعة بمطبعة دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه، بعنوان: (منهاج العابدين: وبهامشه الكتاب المُسمى "بداية الهداية"). وقد أفردتُ رسالة (بداية

الهداية) على أن تكون رسالة (منهاج العابدين) في الحلقة التالية أو بعد التالية. واعتمدتُ في تحقيق رسالة (القواعد العشرة) على طبعة (الجواهر الغوالي من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزَّالي)، التي طُبِعَتْ على نفقة الرحَّالة محيي الدين صبري الكردي، وقد حققها قبل عشرة أعوام؛ أي في سنة ١٩٢٤ ميلاديًّا بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، وذلك سنة ١٣٥٣ هجريًّا - ١٩٣٤ ميلاديًّا.

محمد مصطفى الساكت

الإسكندرية في ١٠ سبتمبر ٢٠٢١م

Email: muhammadalsaket89@gmail.com

❁❁❁

■■ الرحلة ٣ ■■

٣

بداية الهداية

بسم الله الرحمن الرحيم

(خطبة الرسالة)

قال الشيخ الإمام، العالم العلامة، حجة الاسلام، وبركة الأنام: أبو حامد محمد بن محمد بن الغزَّالي الطوسي؛ قدس الله روحه، ونور ضريحه - آمين:

الحمدالله حق حمده، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد رسوله وعبده، وعلى آله وصحبه من بعده.

أما بعد؛ فاعلم أيها الحريص المقبل على اقتباس العلم، المظهر من نفسه صدق الرغبة، وفرط التعطش إليه، أنك إن كنت تقصد بالعلم المنافسة، والمباهاة، والتقدم على الأقران، واستمالة وجوه الناس إليك، وجمع حطام الدنيا؛ فأنت ساعٍ في هدم دينك، وإهلاك نفسك، وبيع آخرتك بدنياك؛ فصفقتك خاسرة، وتجارتك بائرة، ومُعَلِّمُك مُعين لك على عصيانك، وشريك لك في خسرانك، وهو كبائع سيف لقاطع

طريق، كما قال ﷺ: «مَنْ أَعَانَ عَلَى مَعْصِيَّةٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَة كَانَ شَرِيكًا فِيهَا»(١) . وإن كانت نيتك وقصدك، بينك وبين الله تعالى، من طلب العلم: الهداية دون مجرد الرواية، فأبشر، فإن الملائكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيت، وحيتان البحر تستغفر لك إذا سعيت. ولكن ينبغي لك أن تعلم، قبل كل شيء، أن الهداية التي هي ثمرة العلم لها بداية ونهاية، وظاهر وباطن، ولا وصول إلى نهايتها إلا بعد إحكام بدايتها، ولا عثور على باطنها إلا بعد الوقوف على ظاهرها. وها أنا مشير عليك ببداية الهداية، لتجرب بها نفسك، وتمتحن بها قلبك، فإن صادفت قلبك إليها مائلًا، ونفسك بها مطاوعة، ولها قابلة، فدونك التطلع إلى النهايات والتغلغل في بحار العلوم. وإن صادفت قلبك عند مواجهتك إياها بها مُسَوِّفًا، وبالعمل بمقتضاها مماطلًا، فاعلم أن نفسك المائلة إلى طلب العلم هي النفس الأمارة بالسوء، وقد انتهضتْ مطيعة للشيطان اللعين ليدليك بحبل غروره، فيستدرجك بمكيدته إلى غمرة الهلاك، وقصده أن يروج عليك الشر في معرض الخير حتى يلحقك ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾(٢) . وعند ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلماء، وما ورد فيه من الأخبار والآثار، ويلهيك عن قوله ﷺ: «مَنْ اِزْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزْدَدْ هُدَى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا»(٣)،

(١) ليس بحديث.

(٢) سورة الكهف: ١٠٣، ١٠٤

(٣) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند (الفردوس)، وحديث علي بإسناد ضعيف.

أبو حامد الغزَّالي، محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين: "يذيله كتاب: المغني عن حمل الأسفار في الأسفاروتخريج ما في الإحياء من أخبار"** – كتاب العلم – الباب السادس: في آفات العلم وبيان علماء الآخرة والعلماء السوء – ج ١ – ص ٧٨ – دار التوفيقية للتراث – القاهرة.

وعن قوله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَا يَنْفَعُهُ اللهُ بِعِلْمِهِ.»(١)، وكان ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ»(٢).

وعن قوله ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بأقوام تقرض شفاههم بمقارض من نار، فقلت: من أنتم؟ قالوا: كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه»(٣).

فإياك يا مسكين أن تذعن لتزويره، فيدليك بحبل غروره، فويل للجاهل حيث لم يتعلم مرة واحدة، وويل للعالم حيث لم يعمل بما عمل ألف مرة.

واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال:

رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد به إلا وجه الله والدار الآخرة، فهذا من الفائزين. **ورجل** طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عالم بذلك، مستشعر في قلب ركاكة حاله وخسة مقصده، فهذا من المخاطرين فإن عاجله أجله قبل التوبة خِيفَ عليه من سوء الخاتمة، وبَقِيَ

---

(١) لفظ الحديث في المعجم الصغير: (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ). المعجم الصغير – باب الطاء – مَن اسمه طاهر – حديث رقم ٥٢٥، والحديث من طريق أبي هريرة ﷺ، لَمْ يَرْوِهِ عَنِ الْمَقْبُرِيِّ إِلَّا عُثْمَانُ الْبُرِّيُّ.

(٢) صحيح مسلم – كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل – حديث رقم ٧٠٨١، والحديث من طريق زيد بن أرقم.

(٣) لفظ الحديث: (مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ). مسند الإمام أحمد – مسند أنس بن مالك رضي الله عنه – حديث رقم ١٢٣٩٤، والحديث من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.

أمره في خطر المشيئة، وإن وُفِّقَ للتوبة قبل حلول الأجل، وأضاف إلى العلمِ العملَ، وتداركَ ما فرط منه من الخلل، التحقَ بالفائزين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. **ورجل** ثالث استحوذ عليه الشيطان، فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يَقْضِيَ من الدنيا وَطَرَه[١] ، وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانٍ، لاتسامه بسمة العلماء، وتَرَسُّمِه برسومهم في الزي والمنطق، مع تكالبه على الدنيا ظاهراً وباطناً، فهذا من الهالكين، ومن الحمقى المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين، وهو غافل عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾[٢] . وهو ممن قال فيهم رسول الله: «أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال، فقيل: وما هو يا رسول الله؟ فقال: علماء السوء» [٣]. وهذا لأن الدجال غايته الإضلال، ومثل هذا العالم وإن صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله فهو دافع لهم إليها بأعماله وأحواله، ولسان الحال أفصح من لسان المقال، وطباع الناس إلى المشاهدة في الأعمال أميل منها إلى المتابعة في الأقوال؛ فما أفسده هذا المغرور بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله، إذ لا يستجرئ الجاهل على الرغبة في الدنيا إلا باستجراء العلماء، فقد صار علمه سبباً لجرأة عباد الله على معاصيه، ونفسه الجاهلة

---

(١) الوَطَرُ: الغرض.

(٢) سورة الصف: ٢

(٣) لفظ الحديث: (غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِي مِنَ الدَّجَّالِ فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَدْخُلَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ شَيْءٍ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِكَ مِنَ الدَّجَّالِ؟ قَالَ: الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ). مسند الإمام أحمد – مسند الأنصار رضي الله عنهم – حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه حديث رقم ٢١٦٩٢ ، والحديث من طريق أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

مذلة مع ذلك تمنيه وترجيه، وتدعوه إلى أن يمن على الله بعلمه، وتخيل إليه نفسه أنه خير من كثير من عباد الله.

فكن أيها الطالب من الفريق الأول، واحذر أن تكون من الفريق الثاني، فكم من مُسَوِّفٍ عاجله الأجل قبل التوبة فخسر، وإياك ثم إياك أن تكون من الفريق الثالث، فتهلك هلاكًا لا يُرجى معه فلاحك، ولا ينتظر صلاحك.

فإن قلت: فما بداية الهداية لأجرب بها نفسي، فاعلم أن بدايتها ظاهرة التقوى، ونهايتها باطنة التقوى، فلا عاقبة إلا بالتقوى، ولا هداية إلا للمتقين.

والتقوى، عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، فهما قسمان، وها أنا أشير عليك بجمل مختصرة من ظاهر علم التقوى في القسمين جميعًا، وأُلحق قسمًا ثالثًا ليصير هذا الكتاب جَامِعًا مُغنيًا والله المستعان.

❁❁❁

القسم الأول: في الطاعات

توطئة

اعلم أن أوامر الله تعالى فرائض ونوافل؛ فالفرض رأس المال، وهو أصل التجارة وبه تحصل النجاة، والنفل هو الربح وبه الفوز بالدرجات، قال ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: ما تقرب إليَّ المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها». ولن تصل أيها الطالب إلى القيام بأوامر الله تعالى إلا بمراقبة قلبك وجوارحك في لحظاتك وأنفاسك، حين تصبح إلى حين تُمسِي. فاعلم أن الله تعالى مطلع على ضميرك، ومشرف على ظاهرك وباطنك، ومحيط بجميع لحظاتك، وخطراتك، وخطواتك، وسائر سكناتك وحركاتك؛ وأنك في مخالطتك وخلواتك متردد بين يديه؛ فلا يسكن في الملك والملكوت ساكن، ولا يتحرك متحرك، إلا وجبار السماوات والأرض مطلع عليه، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم السر وأخفى؛ فتأدب أيها المسكين ظاهراً وباطناً بين يدي الله تعالى تأدب العبد الذليل المذنب في حضرة الملك الجبار القهار، واجتهد ألا يراك مولاك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك. ولن تقدر على ذلك إلا بأن توزع أوقاتك، وترتب أورادك من صباحك إلى مسائك، فاصغ إلى ما يُلقى إليك من أوامر الله تعالى عليك من حين تستيقظ من منامك إلى وقت رجوعك إلى مضجعك.

❁❁❁

﴿فصل في آداب الاستيقاظ من النوم﴾

فإذا استيقظت من النوم، فاجتهد أن تستيقظ قبل طلوع الفجر، وليكن أول ما يجري على قلبك ولسانك ذكر الله تعالى، فقل عند ذلك: «الحمد الله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور، أصبحنا وأصبح الملك لله، والعظمة والسلطان لله، والعزة والقدرة لله رب العالمين، أصبحنا على فطرة الاسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين، اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور، اللهم إنا نسألك أن تبعثنا في هذا اليوم إلى كل خير، ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءًا أو نجره إلى مسلم، أو يجره أحد إلينا، نسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما فيه». فإذا لبست ثيابك فانو به امتثال أمر الله تعالى في ستر عورتك، واحذر أن يكون قصدك من لباسك مراءاة الخلق فتخسر.

۞۞۞

﴿باب آداب دخول الخلاء﴾

فإذا قصدت بيت الماء لقضاء الحاجة، فقدم في الدخول رجلك اليسرى، وفي الخروج رجلك اليمنى، ولا تستصحب شيئًا عليه اسم الله تعالى ورسوله. ولا تدخل حاسر الرأس، ولا حافي القدمين. وقل عند الدخول: «باسم الله، أعوذ بالله من الرجس النجس، الخبيث المخبث، الشيطان الرجيم».

وعند الخروج: «غفرانك، الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى فيما ينفعني».

وينبغي أن تعدل النبل قبل قضاء الحاجة، وإلا تستنجي بالماء في موضع قضاء الحاجة، وأن تستبرئ من البول بالتنحنح والنتر ثلاثًا، وبإمرار اليد اليسرى على أسفل القضيب. وإن كنت في الصحراء، فابعد عن عيون الناظرين واستتر بشيء إن وجدته، ولا تكشف عورتك قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس. ولا تستقبل الشمس ولا القمر، ولا تستقبل القبلة ولا تستدبرها، ولا تجلس في متحدث الناس، ولا تبل في الماء الراكد وتحت الشجرة المثمرة، ولا في الجحر، واحذر الأرض الصلبة ومهب الريح، احترازًا من الرشاش لقوله ﷺ: «فَإِنَّ عَامَّةَ الْوَسْوَاسِ مِنْهُ»(١).

واتكئ في جلوسك على الرجل اليسرى، ولا تبل قائمًا إلا عن ضرورة، واجمع في الاستنجاء بين استعمال الحجر والماء، فإذا أردت الاقتصار على أحدهما فالماء أفضل، وإذا اقتصرت على الحجر فعليك أن تستعمل ثلاثة أحجار طاهرة منشفة للعين، تمسح القضيب في ثلاثة مواضع من حجر، فإن لم يحصل الإنقاء بثلاثة فتمم خمسة أو سبعة إلى أن ينقى بالإيتار؛ فالإيتار مستحب والإنقاء واجب. ولا تستنج إلا باليد اليسرى. وقل عند الفراغ من الاستنجاء: «اللهم طهر قلبي من النفاق، وحصن فرجي من الفواحش». وادعك يدك بعد تمام الاستنجاء بالأرض أو بحائط ثم اغسلها.

❊❊❊

(١) سنن أبي داود – كتاب الطهارة – باب في البول في المُسْتَحِمِّ – حديث رقم ٢٧، والحديث من طريق عبد الله بن مغفل بن عبد نهم المُزني.

﴿باب آداب الوضوء﴾

فإذا فرغت من الاستنجاء، فلا تترك السواك؛ فإنه مطهرة للفم، ومرضاة للرب، ومسخطة للشيطان وصلاة بسواك أفضل من سبعين صلاة بلا سواك. ورُوِيَ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك في كل صلاة»(١) ، وعنه ﷺ: «أُمِرْتُ بِالسِّوَاكِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيَّ»(٢) .

ثم اجلس للوضوء مستقبل القبلة على موضع مرتفع كي لا يصيبك الرشاش، وقل: «بسم الله الرحمن الرحيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب بأن يحضرون». ثم اغسل يديك ثلاثًا قبل أن تدخلهما الإناء، وقل: «اللهم إني أسألك اليمن والبركة، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة».

ثم انو رفع الحدث واستباحة الصلاة، ولا ينبغي أن تعزب نيتك قبل غسل الوجه، فلا يصح وضؤوك، ثم خذ غرفة لفمك وتمضمض بها ثلاثًا، وبالغ في رد الماء إلى الغلصمة(٣) إلا أن تكون صائمًا فترفق، وقل: «اللهم أعني على تلاوة كتابك

---

(١) لفظ الحديث: (لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ). صحيح البخاري – كتاب الجمعة – باب السواك يوم الجمعة – حديث رقم ٨٩٥، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسند الإمام أحمد – مسند المكيين رضي الله عنهم – حديث واثلة بن الأسقع من الشاميين رضي الله عنه – حديث رقم ١٦٢٥٤، والحديث من طريق واثلة بن الأسقع.

(٣) حاجز عضلي غشائي يفصل بين الفم والحنجرة ويقفل الحنجرة أثناء البلع.

وكثرة الذكر لك، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة». ثم خذ غرفة لأنفك واستنشق بها ثلاثًا، واستنثر ما في الأنف من رطوبة، وقل في الاستنشاق: «اللهم أرحني رائحة الجنة وأنت عني راض»، وفي الاستنثار: «اللهم إني أعوذ بك من روائح النار وسوء الدار».

ثم خذ غرفة لوجهك، فاغسل بها من مبتدأ تسطيح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول، ومن الأذن في العرض، وأوصل الماء إلى موضع التجديف، وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه، وهو ما بين رأس الأذن إلى زاوية الجبين، أعني ما يقع منه في جبهة الوجه، وأوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة: الحاجبين، والشاربين، والأهداب، والعذران (وهما ما يوازيان الأذنين، من مبتدأ اللحية)، ويجب إيصال الماء إلى منابت الشعر من اللحية الخفيفة، دون الكثيفة؛ وقل عندن غسل الوجه: «اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك، ولا تسود وجهي بكلماتك يوم تسود وجوه أعدائك»، ولا تترك تخليل اللحية الكثيفة.

ثم اغسل يدك اليمنى، ثم اليسرى مع المرفقين إلى أنصاف العضدين، فإن الحلية في الجنة تبلغ مواضع الوضوء. وقل عند غسل اليد اليمنى: «اللهم أعطني كتابي بيميني، وحاسبني حسابًا يسيرًا»، وعند غسل الشمال: «اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري».

ثم استوعب رأسك بالمسح، بأن تبل يدك وتلصق رؤوس أصابع يدك اليمنى باليسرى، وتضعهما على مقدمة الرأس، وتمررهما إلى القفا، ثم ترددهما إلى المقدمة، فهذه مرة، تفعل ذلك ثلاث مرات، وكذلك في سائر الأعضاء، وقل: «اللهم غشني برحمتك، وأنزل عليَّ من بركاتك، وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك،

اللهم حرم شعري وبشري على النار». ثم امسح أذنيك ظاهرهما وباطنهما بماء جديد، وأدخل مسبحتك في صماخ أذنيك، وامسح أذنيك ببطن إبهاميك، وقل: «اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم أسمعني منادي الجنة في الجنة مع الأبرار»، ثم امسح رقبتك، وقل: «اللهم فك رقبتي من النار، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال».

ثم اغسل رجلك اليمنى ثم اليسرى مع الكعبين، وخلل بخنصر اليسرى أصابع رجلك اليمنى مبتدئًا بخنصرها، حتى تختم بخنصر اليسرى، وتدخل الأصابع من أسفل، وقل: «اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم مع أقدام عبادك الصالحين»، وكذلك تقول عند غسل اليسرى: «اللهم إني أعوذ بك أن تزل قدمي على الصراط في النار يوم تزل أقدام المنافقين والمشركين»، وارفع الماء إلى أنصاف الساقين، وراع التكرار ثلاثًا في جميع أفعالك.

فإذا فرغت، فارفع بصرك إلى السماء، وقل: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، عَمِلْتُ سوءًا، وظَلَمْتُ نفسي، أستغفرك وأتوب إليك، فاغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من عبادك الصالحين، واجعلني صبورًا شكورًا، واجعلني أذكرك ذكرًا كثيرًا، وأسبحك بكرةً وأصيلًا».

فمن قرأ هذه الدعوات في وضوئه خرجت خطاياه من جميع أعضائه، وخُتِمَ على وضوئه بخاتمٍ، ورُفِعَ له تحت العرش، فلم يزل يسبح الله تعالى ويقدسه، ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

واجتنب في وضوئك سبعًا: لا تنفض يديك فترش الماء، ولا تلطم وجهك ورأسك بالماء لطمًا، ولا تتكلم في أثناء الوضوء، ولا تزد في الغسل على ثلاث مرات، ولا تكثر صب الماء من غير حاجة بمجرد الوسوسة، فللموسوسين شيطان يضحك بهم يقال له (الولهان)، ولا تتوضأ بالماء المشمس ولا من الأواني الصفرية، فهذه السبعة مكروهة في الوضوء. وفي الخبر أن: «من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله، ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصابه الماء»(١) .

﴿آداب الغسل﴾

فإذا أصابتك جنابة، من احتلام أو وقاع، فخذ الإناء إلى المغتسل، واغسل يديك أولًا ثلاثًا، وأَزِلْ ما على بدنك من قذر، وتوضأ كما سبق في وضوئك للصلاة مع جميع الدعوات، وأَخّرْ غسل قدميك، كي لا يضيع الماء، فإذا فرغت من الوضوء فصب الماء على رأسك ثلاثًا وأنت ناوٍ رفع الحدث من الجنابة، ثم على شقك الأيمن ثلاثًا، ثم على الأيسر ثلاثًا، وادعك ما أقبل من بدنك وما أدبر ثالثًا، وخَلّلْ شعر رأسك ولحيتك، وأوصل الماء إلى معاطف البدن ومنابت الشعر ما خفف منه وما كثف. واحذر أن تمس ذَكَرَكَ بعد الوضوء فإن أصابته يدك، فأَعِدْ الوضوء.

---

(١) لفظ الحديث الوارد في هذا هو: (إِذَا تَطَهَّرَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُطَهِّرُ جَسَدَهُ كُلَّهُ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَى طُهُورِهِ لَمْ يَطْهُرْ مِنْهُ إِلَّا مَا مَرَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طُهُورِهِ فَلْيَشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ). سنن الدارقطني – كتاب الطهارة – حديث رقم ٢٣٦، والحديث من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، وقال الدارقطني: حديث ضعيف.

والفريض من جملة ذلك كله: النية، وإزالة النجاسة، واستيعاب البدن بالغسل. وفرض الوضوء: غسل الوجه واليدين مع المرفقين، ومسح بعض الرأس، وغسل الرجلين إلى الكعبين مرة، مع النية والترتيب.

وما عداها سنن مؤكدة فضلها كثير، وثوابها جزيل، والمتهاون بها خاسر، بل هو بأصل فرائضه مخاطر، فإن النوافل جوابر للفرائض.

﴿آداب التيمم﴾

فإن عجزت عن استعمال الماء لفقده بعد الطلب، أو لعذر من مرض، أو لمانع من الوصول إليه من سبع أو حبس، أو كان الماء الحاضر تحتاج إليه لعطشك أو لعطش رفيقك، أو ملكًا لغيرك، ولم يبعْ إلا بأكثر من ثمن المثل، أو كان بك جراحة أو مرض تخاف منه على نفسك، فاصبر حتى يدخل وقت الفريضة، ثم اقصد صعيدًا طيبًا عليه تراب خالص طاهر لين، فاضرب عليه بكفيك ضامًّا بين أصابعك، وانوِ استباحة فرض الصلاة، وامسح بهما وجهك كله مرة، ولا تتكلف إيصال الغبار إلى منابت الشعر خف أو كثف، ثم انزع خاتمك، واضرب ضربة ثانية مفرجًا ما بين أصابعك، وامسح بهما يديك مع مرفقيك، فإن لم تستوعبهما فاضرب ضربة أخرى إلى أن تستوعبهما، ثم امسح إحدى كفيك بالأخرى، وامسح ثما بين أصابعك بالتخليل.

وصَلِّ به فرضًا واحدًا وما شئت من النوافل، فإن أردت فرضًا ثانيًا، فاستأنف تيممًا آخر.

❁❁❁

﴿آداب الخروج إلى المسجد﴾

فإذا فرغت من طهارتك، فصَلِّ في بيتك ركعتي الصبح إن كان الفجر قد طلع، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ ثم يتوجه إلى المسجد. ولا تدع الصلاة في الجماعة، لا سيما الصبح؛ فصلاة الجماعة تفضل على الفرد بسبعٍ وعشرين درجة، فإن كنت تتساهل في مثل هذا لربح؛ فأي فائدة لك في طلب العلم؟ وإنما ثمرة العلم العمل به. فإذا سعيت إلى المسجد، فامش على الهينةِ والسكينةِ، ولا تعجل، وقل في طريقك: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق الراغبين إليك، وبحق ممشاي هذا إليك، فإني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا، ولا رياءً، ولا سمعةً، بل خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

❁❁❁

﴿آداب دخول المسجد﴾

فإذا أردت الدخول إلى المسجد، فقدم رجلك اليمنى، وقل: «اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم؛ اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك».

ومهما رأيت في المسجد من يبيع، فقل: «لا أربح الله تجارتك». وإذا رأيت فيه من ينشد ضالة، فقل: «لا ردّ الله عليك ضالتك». كذلك أمر رسول الله ﷺ.

فإذا دخلت المسجد، فلا تجلس حتى تصلي ركعتي التحية، فإن لم تكن على طهارة، أو لم ترد فعلها كفتك الباقيات الصالحات ثلاثًا، وقيل أربعًا، وقيل ثلاثًا للمحدث وواحدة للمتوضئ. فإن لم تكن صليت في بيتك ركعتي الفجر، فيجزئك أداؤهما عن التحية. فإذا فرغت من الركعتين، فانوِ الاعتكاف وادع بما دعا به رسول الله ﷺ بعد ركعتي الفجر، فقل:

«اللهم إني أسألك رحمة من عندك، تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملي، وتلم بها شعثي، وترد بها ألفتي وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتبيض بها وجهي، ولتهمني بها رشدي، وتقضي لي بها حاجتي، وتعصمني بها من كل سوء. اللهم إني أسألك إيمانًا خالصًا دائمًا يباشر قلبي، ويقينًا صادقًا، حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبته عليَّ، ورضني بما قسمته لي. اللهم إني أسألك إيمانًا صادقًا، ويقينًا ليس بعده كفر، وأسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة. اللهم إني أسألك الفوز عند اللقاء والصبر عند القضاء، ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء، ومرافقة الأنبياء. اللهم إني أنزل بك حاجتي، وإن ضعف رأيي وقصر عملية، وافتقرت إلى رحمتك؛ فأسألك يا قاضي الأمور ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور. اللهم ما قصر عنه رأيي، وضعف عنه عملي، ولم تبلغه نيتي وأمنيتي، من خير وعدته أحدًا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدًا من خلقك فإني أرغب إليك فيه، وأسألك إياه يا رب العالمين. اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير

ضالين ولا مضلين، حربًا لأعدائك سلمًا لأوليائك نحب بحبك الناس، ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك. اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان، وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود، والركع السجود، الموفين لك بالعهود، إنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد، سبحان من اتصف بالعز وقال به، سبحان من لبس المجد وتكرم به، سبحان من لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي الجود والكرم، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه. اللهم اجعل لي نورًا في قلبي، ونورًا في قبري، ونورًا في سمعي، ونورًا في بصري، ونورًا في شعري، ونورًا في بشري، ونورًا في لحمي، ونورًا في دمي، ونورًا في عظامي، ونورًا من بين يدي، ونورًا من خلفي، ونورًا من يميني، ونورًا عن شمالي، ونورًا من فوقي، ونورًا من تحتي. اللهم زدني نورًا، وأعطني نورًا أعظم نور، واجعل لي نورًا برحمتك يا أرحم الراحمين».

فإذا فرغت من الدعاء، فلا تشتغل إلى وقت الفرض إلا بفكر وتسبيح أو قراءة قرءان. فإذا سمعت الأذان في أثناء ذلك، فاقطع ما أنت فيه واشتغل بجواب المؤذن. فإذا قال المؤذن: «الله أكبر»، فقل مثل ذلك، وكذلك في كل كلمة إلا في الحيعلتين فقل فيهما: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

فإذا قال: «الصلاة خير من النوم»، فقل: «صدقت وبررت وأنا على ذلك من الشاهدين»، فإذا سمعت الإقامة فقل مثل ما يقول، إلا في قوله: «قد قامت الصلاة»، فقل: «أقامها الله وأدامها ما دامت السماوات والأرض». فإذا فرغت من جواب المؤذن فقل: «اللهم إني أسألك عند حضور صلاتك وأصوات دعاتك،

وإدبار ليلك، وإقبال نهارك: أن تؤتي محمدًا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد يا أرحم الراحمين». فإذا سمعت الأذان وأنت في الصلاة فتمم الصلاة، ثم تدارك الجواب بعد السلام على وجهه.

فإذا أحرم الإمام بالفرض، فلا تشتغل إلا بالاقتداء به، وصَلِّ الفرض كما سيُتلى عليك في كيفية الصلاة وآدابها، فإذا فرغت فقل: «اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد وسلم، اللهم أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحينا ربنا بالسلام، وأدخلنا الجنة دار السلام؛ تباركت يا ذا الجلال والإكرام؛ سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، أهل النعمة والفضل والثناء الحسين، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون».

ثم ادع بعد ذلك بالجوامع الكوامل، وهو ما علمه رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها، فقل: «اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد، وأسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ، وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ، وما قضيت على من أمر فاجعل عاقبته رشدًا».

ثم ادع بما أوصى به رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها، فقل: «يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، ومن عذابك أستجير، لا تكلني إلى نفسي، ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين، وأصلح لي شأني كله بما أصلحت به الصالحين».

ثم قل ما قاله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيدك لا بيد غيرك، وأصبحت مُرْتَهِنًا بعملي؛ فلا فقير أفقر مني إليك، ولا غني أغنى منك عني. اللهم لا تشمت بي عدوي، ولا تسوء بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي، ولا تسلط عليَّ بذنبي من لا يرحمني». ثم ادع بما بدا لك من الدعوات المشهورات، واحفظها مما أوردنا في كتاب الدعوات من كتاب (إحياء علوم الدين).

ولتكن أوقاتك بعد الصلاة إلى طلوع الشمس، موزعة على أربع وظائف: وظيفة في الدعوات، ووظيفة في الأذكار والدعوات؛ وتكررها في مسبحة، ووظيفة في قراءة القرءان، ووظيفة في التفكر، فتفكر في ذنوبك وخطاياك وتقصيرك في عبادة مولاك، وتعرضك لعقابه الأليم وسخطه العظيم.

وترتب بتدبيرك أورادك في جميع يومك لتتدارك به ما فرط من تقصيرك، وتحترز من التعرض لسخط الله تعال الأليم في يومك، وتنوي الخير لجميع المسلمين وتعز ألا تشغل في جميع نهارك إلا بطاعة الله تعالى، وتقصد في قلبك الطاعات التي تقدر عليها وتختار أفضلها، وتتأمل تهيئة أسبابها لتشتغل بها؛ ولا تدع عنك التفكر في

قرب الأجل، وحلول الموت القاطع للأمل، وخروج الأمر عن الاختيار، وحصول الحسرة والندامة بطول الاغترار.

وليكن من تسابيحك، وأذكارك عشر كلمات: (**إحداهن**): لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، له الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، و(**الثانية**): لا إله إلا الله الملك الحق المبين، و(**الثالثة**): لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار، و(**الرابعة**): سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، و(**الخامسة**): سبوح قدوس رب الملائكة والروح، و(**السادسة**): سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، و(**السابعة**): أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا الله هو الحي القيوم، وأسأله التوبة والمغفرة، و(**الثامنة**): اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد، و(**التاسعة**): اللهم صلى على محمد، وعلى آل محمد وصحبه وسلم، و(**العاشرة**): بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

تُكَرِّرْ كل واحدة من هذه الكلمات إما مائة مرة أو سبعين مرة، أو عشر مرات، وهو أقله، ليكون المجموع مائة. ولازم هذه الأوراد، ولا تتكلم قبل طلوع الشمس؛ ففي الخبر أن ذلك أفضل من إعتاق ثمان رقاب من ولد إسماعيل - على نبينا وعليه الصلاة والسلام؛ أعني الاشتغال بالذكر إلى طلوع الشمس من غير أن يتخلله كلام.

❁❁❁

﴿آداب ما بعد طلوع الشمس إلى الزوال﴾

فإذا طلعت الشمس وارتفعت قدر رمح، فصل ركعتين، وذلك عند زوال وقت الكراهة للصلاة؛ فإنها مكروهة من بعد فريضة الصبح إلى ارتفاع الشمس.

فإذا أضحى النهار، ومضى منه قريب من ربعه، صل صلاة الضحى أربعًا أو ستًّا أو ثمانيةً، مثنى، مثنى؛ فقد نقلت هذه الأعداد كلها عن رسول الله ﷺ.

والصلاة خير كلها فمن شاء فليستكثر، ومن شاء فليستقلل، فليس بين طلوع الشمس والزوال راتبة من الصلة إلا هذه؛ فما فضل منها من أوقاتك فلك فيه أربع حالات:

(الحالة الأولى):

وهي الأفضل: أن يصرفه في طلب العلم النافع في الدين، دون الفصول الذي أكبَّ الناس عليه وسموه علمًا.

والعلم النافع هو ما يزيد في خوفك من الله تعالى، ويزيد في بصيرتك بعيوب نفسك، ويزيد في معرفتك بعبادة ربك، ويقلل من رغبتك في الدنيا، ويزيد في رغبتك في الآخرة، ويفتح بصيرتك بآفات أعمالك حتى تحترز منها، ويُطْلِعك على مكايد الشيطان وغروره، وكيفية تلبيسه على علماء السوء، حتى عَرَّضهم لمقت الله تعالى وسخطه؛ حيث أكلوا الدنيا بالدين، واتخذوا العلم ذريعة ووسيلة إلى أخذ أموال السلاطين، وأكل أموال الأوقاف واليتامى والمساكين، وصرفوا همتهم طول نهارهم

إلى طلب الجاه والمنزلة في قلوب الخلق، واضطرهم ذلك إلى المراءة والمماراة، والمشاقة في الكلام والمباهاة.

وهذا الفن من العلم النافع، قد جمعناه في كتاب (إحياء علوم الدين)، فإن كنت من أهله فحصله واعمل به ثم علمه وادع إليه؛ فمن علم ذلك وعمل به، ثم علمه ودعا إليه فذلك يدعى عظيمًا في ملكوت السماوات بشهادة عيسى عليه السلام.

فإذا أفرغت من ذلك كله، وفرغت من إصلاح نفسك ظاهرًا وباطنًا، وفضل شيء من أوقاتك، فلا بأس أن تشتغل بعلم المذهب في الفقه لتعرف به الفروع النادرة في العبادات، وطريق التوسط بين الخلق في الخصومات عند انكبابهم على الشهوات. فذلك أيضًا بعد الفراغ من هذه المهمات من جملة فروض الكفايات.

فإن دعتك نفسك إلى ترك ما ذكرناه من الأوراد والأذكار استثقالًا لذلك، فاعلم أن الشيطان اللعين قد دَسَّ في قلبك الداء الدفين، وهو حب المال والجاه فإياك أن تغتر به، فتكون ضحكة له، فيهلكك، ثم يسخر منك.

فإن جربت نفسك مدة في الأوراد والعبارات، فكانت لا تستثقلها كسلًا عنها، لكن ظهرت رغبتك في تحصيل العلم النافع، ولم ترد به إلا وجه الله تعالى والدار الآخرة، فذلك أفضل من نوافل العبادات مهما صحت النية. ولكن الشأن في صحة النية، فإن لم تصح النية فهو معدن غرور الجهال، ومزلة أقدام الرجال.

(الحالة الثانية):

ألا تقدر على تحصيل العلم النافع في الدين، ولكن تشتغل بوظائف العبادات من الذكر والتسبيح والقراءة والصلاة، فذلك من درجات العابدين، وسير الصالحين، وتكون أيضًا بذلك من الفائزين.

(الحالة الثالثة):

أن تشتغل بما يصل منه خير إلى المسلمين، ويدخل به سرور على قلوب المؤمنين، أو تتيسر به الأعمال الصالحة للصالحين: كخدمة الفقهاء والصوفية وأهل الدين، والتردد في أشغالهم، والسعي في إطعام الفقراء والمساكين، والتردد مثلا على المرضى بالعيادة، وعلى الجنائز بالتشييع، فكان ذلك أفضل من النوافل؛ فإن هذه عبادات، وفيها رفق للمسلمين.

(الحالة الرابعة):

ألا تقوى على ذلك، فاشتغل بحاجاتك اكتسابًا على نفسك أو على عيالك، وقد سلم المسلمون منك وآمنوا من لسانك ويدك، وسَلِمَ لك دينك، إذا لم ترتكب معصية؛ فتنال بذلك درجة أصحاب اليمين، إن لم تكن من أهل الترقي إلى مقامات السابقين.

فهذا أقل الدرجات في مقامات الدين، وما بعد هذا فهو من مراتع الشياطين، وذلك بأن تشتغل - والعياذ بالله - بما يهدم دينك، أو تؤذي به عبدًا من عباد الله تعالى، فهذه رتبة الهالكين، فإياك أن تكون في هذه الطبقة.

واعلم أن العبد في حق دينه على ثلاث درجات: إما سالم: وهو المقتصر على أداء الفرائض وترك المعاصي، أو رابح: وهو المتطوع بالقربات والنوافل، أو خاسر: وهو المُقَصِّرُ عن اللوازم.

فإن لم تقدر أن تكون رابحًا، فاجتهد أن تكون سالمًا، وإياك ثم إياك أن تكون خاسرًا. والعبد في حق سائر العباد له ثلاث درجات: **(الأولى)**: أن ينزل في حقهم منزلة الكرام البررة من الملائكة، وهو أن يسعى في أغراضهم، رفقا بهم، وإدخالا للسرور على قلوبهم. **(الثانية)**: أن ينزل في حقهم منزلة البهائم والجمادات، فلا ينالهم خيره، ولكن عنهم شره. **(الثالثة)**: أن ينزل في حقهم منزلة العقارب والحيات والسباع الضاريات، لا يرجى خيره، ويتقى شره.

فإن لم تقدر على أن تلتحق بأفق الملائكة، فاحذر أن تنزل عن درجة البهائم والجمادات إلى درجة العقارب والحيات والسباع الضاريات. فإن رضيت لنفسك النزول من أعلى عليين، فلا ترض لها بالهوى إلى أسفل سافلين، فلعلك تنجو كفافًا لا لك ولا عليك.

فعليك في بياض نهارك ألا تشتغل إلا بما ينفعك في معادك أو معاشك الذي لا تستغنى عن الاستعانة به على معادك. فإن عجزت عن القيام بحق دينك مع مخالطة الناس، وكنت لا تسلم، فالعزلة أولى، فعليك بها، ففيها النجاة والسلامة. فإن

كانت الوساوس في العزلة تجاذبك إلى مالا يرضى الله تعالى، ولم تقدر على قمعها بوظائف العبادات فعليك بالنوم فهو أحسن أحوالك وأحوالنا إذا عجزنا عن الغنيمة رضينا بالسلامة في الهزيمة. فما أخس حال من سلامة دينه في تعطيل حياته إذ النوم أخو الموت، وهو تعطيل الحياة والتحاق بالجمادات.

﴿آداب الاستعداد لسائر الصلوات﴾

آداب الاستعداد لسائر الصلوات ينبغي أن تستعد لصلاة الظهر قبل الزوال، فتقدم القيلولة إن كان بك قيام في الليل، أو سهر في الخير؛ فإن فيها معونة على قيام الليل، كما أن في السحور معونة على صيام النهار، والقيلولة من غير قيام بالليل كالسحور من غير صيام بالنهار.

فإذا قلت، فاجتهد أن تستيقظ قبل الزوال، وتتوضأ وتحضر المسجد، وتصلي تحية المسجد، وتنتظر المؤذن فتجيبه، ثم تقوم فتصلي أربع ركعات عقب الزوال، كان رسول الله ﷺ يطولهن ويقول: «هذا وقت تفتح فيه أبواب السماء، فأحب أن يرفع لي فيه عمل صالح»(١) . وهذه الأربع قبل الظهر سنة مؤكدة؛ ففي الخبر: «أن من صلاهن فأحسن ركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له إلى الليل».

---

(١) لفظ الحديث الوارد في هذا هو: (إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَأُحِبُّ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ). سنن الترمذي – كتاب الصلاة – باب ما جاء في الصلاة عند الزوال – حديث رقم ٤٨٠، والحديث من طريق عبد الله بن السائب. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

ثم صَلِّ الفرض مع الإمام، ثم صَلِّ بعد الفرض ركعتين؛ فهما من الرواتب الثابتة. ولا تشتغل إلى العصر إلا بتعلم علم أو إعانة مسلم، أو قراءة قرآن أو سعي في معاش لتستعين به على دينك، ثم صل أربع ركعات قبل العصر؛ فهي سنة مؤكدة؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ امْرَأً صَلَّى أَرْبَعًا قَبْلَ العَصْرِ»(١) . فاجتهد أن ينالك دعاؤه ﷺ، ولا تشتغل بعد العصر إلا بمثل ما سبق قبله، ولا ينبغي أن تكون أوقاتك مهملة فتشتغل في كل وقت بما اتفق كيف اتفق، بل ينبغي أن تحاسب نفسك وترتب أورادك في ليلك ونهارك، وتعين لكل وقت شغلًا لا تتعداه، ولا تؤثر فيه سواه فبذلك تظهر بركة الأوقات. فأما إذا تركت نفسك سُدى مهملًا إهمال البهائم لا تدري بماذا تشتغل في كل وقت، فينقضي أكثر أوقاتك ضائعًا، وأوقاتك عمرك، وعمرك رأس مالك، وعليه تجارتك، وبه وصولك إلى نعيم دار الأبد في جوار الله تعالى؛ فكل نفس من أنفاسك جوهرة لا قيمة لها؛ إذ لا بدل له، فإذا فات فلا عود له. فلا تكن كالحمقى المغرورين الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم، فأي خير في مال يزيد وعمر ينقص! ولا تفرح إلا بزيادة علم أو عمل صالح؛ فإنهما رفيقاك يصحبانك في القبر حيث يتخلف عنك أهلك ومالك، وولدك، وأصدقاؤك.

---

(١) لفظ الحديث الوارد في هذا هو: (رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا). سنن أبي داود – كتاب التطوع – باب الصلاة قبل العصر – حديث رقم ١٢٧٣، والحديث من طريق عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ثم إذا اصفرت الشمس، فاجتهد أن تعود إلى المسجد قبل الغروب، وتشتغل بالتسبيح والاستغفار؛ فإن فضل هذا الوقت كفضل ما قبل الطلوع، قال الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾(١) .

واقرأ قبل غروب الشمس أربع سور من القرءان هي: (والشمس وضحاها)، (والليل إذا يغشى)، و(المعوذتين). ولتغرب عليك الشمس وأنت في الاستغفار، فإذا سمعت الأذان فاجبه، وقل بعده: «اللهم إني أسألك عند إقبال ليلك، وإدبارك نهارك، وحضور صلاتك، وأصوات دعاتك: أن تؤتي محمد الوسيلة» الدعاء كما سبق.

ثم صَلِّ الفرض بعد جواب المؤذن والإقامة، وصَلِّ بعده قبل أن تتكلم ركعتين، فهما راتبتا المغرب، وإن صليت بعدهما أربعًا تطيلهن، فهن أيضًا سُنَّة.

وإن أمكنك أن تنوي الاعتكاف إلى العشاء، وتحيي ما بين العشاءين بالصلاة فافعل، فقد ورد في فضل ذلك ما لا يحصى، وهي ناشئة الليل؛ لأنه أول نشأه، وهي صلاة الأوابين، وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾(٢) ، فقال: «هي الصلاة ما بين العشاءين فإنها تذهب بمَلْغَيَات أول النهار وآخره».

(١) سورة طه: ١٣٠

(٢) سورة السجدة: ١٦

والمَلْغَيَات: جمع (مَلغاة)، وهي من اللغو، فإذا دخل وقت العشاء، فصل أربع ركعات قبل الفرض إحياءً لما بين الأذانين؛ ففضل ذلك كثير وفي الخبر: «أن الدعاء بين الأذان والاقامة لا يرد»(١) .

ثم صَلِّ الفرض وصَلِّ الراتبة ركعتين، واقرأ فيهما سورة (ألم) السجدة، و(تبارك) الملك، أو سورة يس، و(الدخان)؛ فذلك مأثور عن رسول الله ﷺ. وصل بعدهما أربع ركعات، ففي الخبر ما يدل على عظم فضلهن. ثم صل الوتر بعدها ثلاثًا بتسليمتين أو بتسليمة واحدة. وكان رسول الله ﷺ يقرأ فيها سورة (سبح اسم ربك الأعلى)، و(قل يأيها الكافرون)، و(الإخلاص)، و(المعوذتين).

فإن كنت عازمًا على قيام الليل، فأَخِّرْ الوتر، ليكون آخر صلاتك وترًا، ثم اشتغل بعد ذلك بمذاكرة علم أو مطالعة كتاب، ولا تشتغل باللهو واللعب فيكون ذلك خاتمة أعمالك قبل نومك؛ فإنما الأعمال بخواتيمها.

❁❁❁

﴿آداب النوم﴾

فإذا أردت النوم، فابسط فراشك مستقبل القبلة، ونم على يمينك كما يضطجع الميت في لحده. واعلم أن النوم مثل الموت، واليقظة، فكن مستعدًا للقائه،

(١) ورد الحديث في سنن أبي داود بلفظ: (لاَ يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ). سنن أبي داود – كتاب الصلاة – باب ما جاء في الدعاء بين الأذان والإقامة – حديث رقم ٥٢١، والحديث من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.

بأن تنام على طهارة، وتكون وصيتك مكتوبة تحت رأسك، وتنام تائبًا من الذنوب، مستغفرًا، عازمًا على أن لا تعود إلى معصية. واعزم على الخير لجميع المسلمين إن بعثك الله تعالى، وتذكر أنك ستضجع في اللحد كذلك وحيدًا فريدًا ليس معك إلا عملك، ولا تجزى إلا بسعيك.

ولا تستجلب النوم تكلفًا بتمهيد الفرش الوطيئة؛ فإن النوم تعطيل الحياة، إلا إذا كانت وبالًا عليك؛ فنومك سلامة لدينك.

واعلم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فلا يكن نومك بالليل والنهار أكثر من ثماني ساعات، فيكفيك إن عشت - مثلًا - ستين سنة أن تضيع منها عشرين سنة وهو ثلث عمرك.

وأعد عند النوم سواكك وطهورك، واعزم على قيام الليل، أو على القيام قبل الصبح، فركعتان في جوف الليل كنز من كنوز البر؛ فاستكثر من كنوزك ليوم فقرك، فلن تغني عنك كنوز الدنيا إذا مت.

وقل عند نومك: «باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه، فاغفر لي ذنبي. اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك، اللهم باسم أحيا وأموت. أعوذ بك اللهم من شر كل ذي بشر، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم. اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر. اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها، لك مماتها ومحياها، إن أمتها فاغفر لها، وإن أحييتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. اللهم إني أسألك

العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة؛ اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك، واستعملني بأحب الأعمال إليك، لتقربني إليك زلفى، وتبعدني عن سخطك بعدًا، أسألك فتعطيني، وأستغفرك فتغفر لي، وأدعوك فتستجيب لي».

ثم اقرأ آية (الكرسي)، و(آمن الرسول) إلى آخر السورة، و(الإخلاص)، و(المعوذتين)، و(تبارك) الملك، ويأخذك النوم وأنت على ذكر الله وعلى الطهارة. فمن فعل ذلك عُرِجَ بروحه إلى العرش، وكتب مصليًّا إلى أن يستيقظ.

فإذا استيقظت، فارجع إلى ما عرفتك أولًا، وداوم على هذا الترتيب بقية عمرك. فإن شَقَّتْ عليك المداومة، فاصبر صبر المريض على مرارة الدواء انتظارًا للشفاء، وتفكر في قصر عمرك، وإن عشت مثلًا مائة سنة فهي قليلة بالإضافة إلى مقامك في الدار الآخرة وهي أبد الآباد، وتأمل أنك كيف تتحمل المشقة والذل في طلب الدنيا شهراً أو سنةً رجاء أن تستريح بها عشرين سنة مثلًا، فكيف لا تتحمل ذلك أيام قلائل رجاء الاستراحة أبد الآباد! ولا تُطَوِّلْ أملك فيثقل عليك عملك، وقَدِّرْ قرب الموت، وقل في نفسك: «إني أتحمل المشقة اليوم فلعلي أموت الليلة، وأصبر الليلة فلعلي أموت غدًا؛ فإن الموت لا يهجم في وقت مخصوص، وحال مخصوص، فلا بُدَّ من هجومه؛ فالاستعداد له أولى من الاستعداد للدنيا، وأنت تعلم أنك لا تبقى فيها إلا مدة يسيرة، ولعله لم يبق من أجلك إلا يوم واحد، أو نفس واحد؛ فقَدِّرْ هذا في قلبك كل يوم، وكَلِّفْ نفسك الصبر على طاعة الله يومًا فيومًا، فإنك لو قَدَّرْتَ البقاء خمسين سنة، وألزمتها الصبر على طاعة الله تعالى نَفَرَتْ واستعصتْ عليك. فإن فعلت ذلك فرحت عند الموت فرحًا لا آخر له، وإن سَوَّفْتَ

وتساهلتْ، جاءك الموت في وقت لا تحتسبه، وتحسرت تحسرًا لا آخر له». وعند الصباح يحمد القوم السُّرى، وعند الموت يأتيك الخبر اليقين، ولتعلمن نبأه بعد حين.

وإذا أرشدناك إلى ترتيب الأوراد، فلنذكر لك كيفية الصلاة والصوم وآدابهما، وآداب الإمامة والقدوة والجمعة.

۞۞۞

﴿آداب الصلاة﴾

فإذا فرغت من طهارة الحدث، وطهارة الخبث، في البدن، والثياب، والمكان ومن ستر العورة من السرة إلى الركبة، فاستقبل القبلة قائمًا مُفَرِّجًا بين قدميك لا تضمهما، واستو قائمًا، واقرأ (قل أعوذ برب الناس) تحصنًا بها من الشيطان الرجيم، وأحضرْ قلبك وفَرِّغْه من الوسواس، وانظر بين يدي من تقوم، ومن تناجي، واستح أن تناجي مولاك بقلب غافل، وصدر مشحون بوساوس الدنيا وخبائث الشهوات.

واعلم أنه تعالى مطلع على سريرتك وناظر إلى قلبك، فإنما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك وتواضعك وتضرعك، واعبده في صلاتك كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فإن لم يحضر قلبك، ولم تسكن جوارحك لقصور معرفتك بجلال الله تعالى، فَقَدِّرْ أن رجلًا صالحًا من وجوه أهل بيتك ينظر إليك ليعلم كيف صلاتك، فعند ذلك يحضر قلبك وتسكن جوارحك، ثم ارجع إلى نفسك وقل: «يا نفس السوء ألا

تستحين من خالقك ومولاك، إذ قدرت اطلاع عبد ذليل من عباده عليك، وليس بيده ضرك ولا نفعك خشعت جوارحك وحسنت صلاتك، ثم إنك تعلمين أنه مطلع عليك، ولا تخشعين لعظمته، أهو - تعالى - عندك أقل من عباده؟! فما أشد طغيانك وجهلك وما أعظم عداوتك لنفسك». وعالج قلبك بهذه الحيل فعسى أن يحضر معك في صلاتك؛ فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها، وأما ما أتيت مع الغفلة والسهو فهو إلى الاستغفار والتكفير أحوج. فإذا حضر قلبك، فلا تترك الإقامة، وإن كنت وحدك. وإن انتظرت حضور جماعة فأذن، ثم أقم.

فإذا أقمت فانو وقل في قلبك: «أؤدي فرض الظهر لله تعالى»، وليكن ذلك حاضرًا في قلبك عند تكبيرك. ولا تغرب عنك النية قبل الفراغ من التكبير، وارفع يديك عند التكبير - بعد إرسالهما أولًا - إلى حذو منكبيك وهما مبسوطتان، وأصابعهما منشورة، ولا تتكلف ضمهما ولا تفريجهما، بحيث تحاذي بإبهاميك شحمتي أذنيك، وبكفيك منكبيك، فإذا استقرتا في مقرهما فكبر، ثم أرسلهما برفق.

ولا تدفع يديك عند الرفع والإرسال إلى قدام دفعًا، ولا إلى خلف رفعًا، ولا تنفضهما يمينًا ولا شمالًا. فإذا أرسلتهما فاستأنف رفعهما إلى صدرك، وأكرم اليمنى بوضعها على اليسرى، وانشر أصابع اليمنى على طول ذراعك اليسرى، واقبض بها على كوعها.

وقل بعد التكبير: «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا»، ثم اقرأ: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾(١) ، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾(٢) . ثم قل: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم أقرأ (الفاتحة) بتشديداتها، واجتهد في الفرق بين الضاد والظاء في قراءتك في الصلاة، وقل: «آمين»، ولا تصله بقولك: «ولا الضالين» وصلًا، واجهر بالقراءة في الصبح والمغرب، والعشاء، أعني في الركعتين الأوليين إلا أن تكون مأمومًا، واجهر بالتأمين، واقرأ في الصبح بعد (الفاتحة) من السور الطوال من المفصل، وفي المغرب من قصاره، وفي الظهر والعصر والعشاء من أوساطه، نحو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾﴾(٣)، وما قاربها من السور، وفي الصبح في السفر: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾(٤)، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾(٥). ولا تَصِلْ آخر السورة بتكبيرة الركوع، ولكن افصل بينهما بمقدار سبحان الله.

وكن في جميع قيامك مطرقًا، قاصرًا نظرك على مُصَلَّاك، فذلك أجمع لهمك، وأجدر لحضور قلبك، وإياك أن تلتفت يمينًا وشمالًا في صلاتك.

ثم كبر للركوع وارفع يديك كما سبق، ومد التكبير إلى انتهاء الركوع، ثم ضع راحتيك على ركبتيك وأصابعك منشورة، وانصب ركبتيك، ومد ظهرك وعنقك ورأسك مستويًّا كالصحيفة الواحدة، وجاف مرفقيك عن جنبيك، والمرأة

---

(١) سورة الأنعام: ٧٩

(٢) سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣

(٣) سورة البروج: ١

(٤) سورة الكافرون: ١

(٥) سورة الإخلاص: ١

لا تفعل ذلك بل تضم بعضها إلى بعض، وقل: «سبحان ربي العظيم» ثلاثًا. وإن كنت منفردًا، فالزيادة إلى سبع وعشرين حسنة.

ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائمًا، وارفع يديك قائلًا: «سَمِعَ الله لمن حَمِدَه»، فإذا استويت قائمًا فقل: «ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الارض وملء ما شئت من شي بعد». وإن كنت في فريضة الحج، فاقرأ القنوت في الركعة الثانية في اعتدالك من الركوع.

ثم اسجد مكبرًا غير رافع اليدين، وضع أولًا على الأرض ركبتيك، ثم يديك ثم جبهتك مكشوفة، وضع أنفك مع الجبهة وجاف مرفقيك عن جنبيك، وأقل بطنك عن فخذيك، والمرأة لا تفعل ذلك، وضع يديك على الأرض حذو منكبيك، ولا تفرض ذراعيك على الارض، وقل: «سبحان ربي الأعلى» ثلاثًا أو سبعًا أو عشرًا، إن كنت منفردًا.

ثم ارفع رأسك من السجود مكبرًا حتى تعتدل جالسًا، واجلس على رجلك اليسرى، وانصب قدمك اليمنى، وضع يديك على فخذيك، والأصابع منشورة، وقل: «رب اغفر لي، وارحمني، وارزقني، واهدني، واجبرني، وعافني واعف عني». ثم اسجد سجدة ثانية كذلك.

ثم اعتدل جالسًا للاستراحة في كل ركعة لا تشهد عقبها، ثم تقوم وتضع اليدين على الأرض، ولا تقدم إحدى رجليك في حال الارتفاع، وابتدئ بتكبيرة الارتفاع عند القرب من حد جلسة الاستراحة، ومدها إلى انتصاف ارتفاعك إلى قيامك ولتكن هذه الجلسة جلسة خفيفة مختطفة.

وصل الركعة الثانية كالأولى، وأعد التعوذ في الابتداء، ثم اجلس في الركعة الثانية للتشهد الأول، وضع اليد اليمنى في جلسة التشهد الأول على الفخذ اليمنى مقبوضة الأصابع إلا المسبحة والإبهام فترسلها، وانشر مسبحة يمناك عند قولك: «إلا الله» لا عند قولك: «لا إله». وضع اليد اليسرى منشورة الأصابع على الفخذ اليسرى، واجلس على رجلك اليسرى في هذا التشهد كما بين السجدتين، وفي التشهد الاخير مُتَوَرِّكًا. واستكمل الدعاء المعروف المأثور بعد الصلاة على النبي ﷺ، واجلس فيه على وركك الأيسر، وضع رجلك اليسرى خارجة من تحتك، وانصب القدم اليمنى، ثم قل بعد الفراغ: «السلام عليكم ورحمة الله» مرتين، من الجانبين، والتفت بحيث يرى بياض خدك من جانبيك، وانو الخروج من الصلاة، وانو السلام على من بجانبك من الملائكة والمسلمين.

وهذه هيئة صلاة المنفرد. وعماد الصلاة الخشوع، وحضور القلب مع القراءة والذكر بالتفهم. قال الحسن البصري - رحمة الله تعالى: «كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع». وقال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليصلي الصلاة فلا يكتب له منها سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته بقدر ما عقل منها»[1] .

❁❁❁

(١) ورد الحديث في سنن أبي داود بلفظ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلاَّ عُشْرُ صَلاَتِهِ تُسْعُهَا ثُمُنُهَا سُبُعُهَا سُدُسُهَا خُمُسُهَا رُبُعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا). سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب ما جاء في نقصان الصلاة - حديث رقم ٧٩٦، والحديث من طريق عمار بن ياسر.

﴿آداب الإمامة والقدوة﴾

ينبغي للإمام أن يخفف الصلاة، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما صليت خلف أحد صلاة أخف ولا أتم من صلاة رسول الله ﷺ».

ولا يكبر ما لم يفرغ المؤذن من الاقامة، وما لم تسو الصفوف، ويرفع الإمام صوته بالتكبيرات، ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه، وينوي الإمام الإمامة لينال الفضل، فإذا لم ينو، صحت صلة القوم إذا نووا الاقتداء به، ونالوا فضل القدوة.

ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد، ويجهر بالفاتحة والسورة في جميع الصبح، وأولتيي المغرب والعشاء، وكذلك المنفرد، ويجهر بقوله: (آمين) في الجهرية، وكذلك المأموم، ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معًا تعقيباً له، ويسكت الإمام سكتة عقب الفاتحة ليثوب غليه نفسه، ويقرأ المأموم الفاتحة في الجهرية في هذه السكتة، ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام، ولا يقرأ المأموم السورة في الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام.

ولا يزيد الإمام على الثلاث في تسبيحات الركوع والسجود، ولا يزيد في التشهد الأول بعد قوله: «اللهم صل على محمد»، ويقتصر في الركعتين الأخيرتين على الفاتحة، ولا يطول على القوم، ولا يزيد دعاؤه في التشهد الأخير على قدر تشهده وصلاته على رسول الله ﷺ، وينوي الإمام عند التسليم السلام على القوم، وينوي القوم بتسليمهم جوابه.

ويلبث الإمام ساعة بعد ما يفرغ من السلام ويقبل على الناس بوجهه، ولا يلتفت إن كان خلفه نساء حتى ينصرفن أولًا. ولا يقوم أحد من القوم حتى يقوم الإمام، وينصرف الإمام حيث شاء عن يمينه أو شماله، واليمين أحب إليه. ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء في قنوت الصبح، بل يقول: «اللهم اهدنا»، ويجهر به، ويُؤَمِّنُ القوم ولا يرفعون أيديهم إذ لم يثبت ذلك في الأخبار، ويقرأ المأموم بقية القنوت من قوله: «إنك تقضي ولا يقضى عليك».

ولا يقف المأموم وحده، بل يدخل في الصف، أو يجر إلى نفسه غيره، ولا ينبغي للمأموم أن يتقدم على الإمام في أفعاله أو يساويه، بل ينبغي أن يتأخر عنه، ولا يهوي للركوع إلا إذا انتهى الإمام إلى حد الركوع، ولا يهوي للسجود ما لم تصل جبهة الإمام إلى الأرض.

﴿آداب الجمعة﴾

اعلم أن الجمعة عيد المؤمنين، وهو يوم شريف خص الله ﷻ به هذه الأمة، وفيه ساعة مبهمة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها حاجة إلا أعطاه إياها. فاستعد لها من يوم الخميس بتنظيف الثياب، وبكثرة التسبيح والاستغفار عشية الخميس، فإنها ساعة توازي في الفضل ساعة يوم الجمعة. وانو صوم يوم الجمعة، لكن مع الخميس أو السبت، إذ جاء في إفراده نهيٌ.

فإذا طلع عليك الصبح، فاغتسل؛ فإن «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»(١) ، أي ثابت مؤكد. ثم تزين بالثياب البيض؛ فإنها أحب الثياب إلى الله تعالى، واستعمل من الطيب أطيب ما عندك، وبالغ في تنظيف بدنك بالحلق والقص والسواك وسائر أنواع النظافة وتطييب الرائحة.

ثم بَكِّرْ إلى الجامع، وَاِسْعَ إليها على الهينة والسكينة، فقد قال ﷺ: «من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قَرَّبَ بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قَرَّبَ بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قَرَّبَ كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قَرَّبَ دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قَرَّبَ بيضة، فإذا خرج الإمام طُويتْ الصحف، ورُفِعَتْ الأقلام، واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر»(٢) . ويقال إن الناس في قربهم عند النظر إلى وجه الله تعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة.

ثم إذا دخلت الجامع، فاطلب الصف الأول، فإذا اجتمع الناس فلا تتخط رقابهم، ولا تمر بين أيديهم وهم يصلون، واجلس بقرب حائط أو اسطوانة حتى لا يمروا بين يديك، ولا تقعد حتى تصلي التحية، والأحسن أن تصلي أربع ركعات،

---

(١) لفظ الحديث من غير كلمة (يوم): (غُسْلُ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ). المعجم الصغير – باب الياء – من اسم يوسف – حديث رقم ١١٨٨ ، والحديث من طريق أبي سعيد الخدري ﵁.

(٢) ورد في البخاري بلفظ: (مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ). صحيح البخاري – كتاب الجمعة – باب فضل الجمعة – حديث رقم ٨٨٩، والحديث من طريق أبي هريرة ﵁.

تقرأ في كل ركعة بعد (الفاتحة) (الإخلاص) خمسين مرة، ففي الخبر: «أن من فعل ذلك لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له». ولا تترك التحية وإن كان الإمام يخطب. زمن السُّنة أن تقرأ في أربع ركعات سورة (الأنعام)، و(الكهف)، و(طه)، و(يس)، فإن لم تقدر فسورة (يس) و(الدخان)، و (ألم) السجدة، وسورة (الملك). ولا تدع قراءة هذه السورة ليلة الجمعة؛ ففيها فضل كثير. ومن لم يحسن ذلك، فليكثر من قراءة سورة (الإخلاص). واكثار الصلاة على رسول الله ﷺ في هذا اليوم خاصة.

ومتى خرج الإمام، فاقطع الصلاة والكلام، واشتغل بجواب المؤذن، ثم استماع الخطبة والاتعاظ بها، ودع الكلام رأسًا في الخطبة، ففي الخبر: «أنَّ مَن قال لصاحبه - والإمام يخطب - أنصت؛ فقد لغا، ومَن لغا فلا جمعة له»، أي لأن قوله (أنصت): كلام، فينبغي أن ينهى غيره بالإشارة لا باللفظ.

ثم اقتد بالإمام كما سبق. فإذا فرغت وسلمت، فاقرأ (الفاتحة) قبل أن تتكلم سبع مرات، و(الإخلاص) سبعًا، و(المعوذتين) سبعًا، فذلك يعصمك من الجمعة إلى الجمعة الأخرى، ويكون حرزًا لك من الشيطان، وقل بعد ذلك: «يا غني، يا حميد، يا مبدئ، يا معيد، يا رحيم، يا ودود؛ أغنني بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك». ثم صَلِّ بعد الجمعة ركعتين أو أربعًا أو ستًّا، مثنى، مثنى، فكل ذلك مروي عن رسول الله ﷺ في أحوال مختلفة.

ثم لازم المسجد إلى المغرب أو إلى العصر، وكن حسن المراقبة للساعة الشريفة؛ فإنها مبهمة في جميع اليوم، فعساك أن تدركها وأنت خاشع لله تعالى متذلل متضرع.

ولا تحضر في الجامع مجالس الحلق، ولا مجالس القصاص، بل مجلس العلم النافع، وهو الذي يزيد في خوفك من الله تعالى، وينقص من رغبتك في الدنيا، فكل علم لا يدعوك من الدنيا إلى الآخرة فالجهل أعود عليك منه، فاستعذ بالله من علم لا ينفع. وأكثِرْ من الدعاء عند طلوع الشمس، وعند الزوال، وعند الغروب، وعند الإقامة، وعند صعود الخطيب المنبر، وعند قيام الناس إلى الصلاة، فيوشك أن يكون الساعة الشريفة في بعض هذه الأوقات. واجتهد أن تتصدق في هذا اليوم بما تقدر عليه، وإن قَلَّ، فتجمع بين الصلاة، والصوم، والصدقة، والقراءة، والذِّكر، والاعتكاف، والرباط. واجعل هذا اليوم من الأسبوع خاصة لآخرتك، فعساه أن يكون كفارة لبقية الأسبوع.

❁❁❁

﴿آداب الصيام﴾

لا ينبغي أن تقتصر على صوم رمضان فتترك التجارة بالنوافل، وكسب الدرجات العالية في الفراديس، فتتحسر إذ نظرت إلى منازل الصائمين، كما تنظر إلى الكواكب الدُّرِّي، وهم في أعلى عليين.

والأيام الفاضلة التي شهدت الأخبار بفضلها وبشرفها، وبجزالة الثواب في صيامها: يوم عرفة لغير الحاج، ويوم عاشوراء، والعشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأول من المحرم، ورجب، وشعبان، وصوم الأشهر الحرم من الفضائل، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، واحد فرد وثلاثة سرد، وهذه في السنة. وأما في الشهر؛ فأول الشهر وأوسطه وآخره، والأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع

عشر والخامس عشر. وأما في الاسبوع فيوم الإثنين والخميس والجمعة، فتكفر ذنوب الأسبوع بصوم الاثنين والخميس والجمعة، وتكفر ذنوب الشهر باليوم الأول من الشهر واليوم الأوسط واليوم الآخر والأيام البيض، وتكفر ذنوب السنة بصيام هذه الأيام والأشهر المذكورة.

ولا تظن إذا صمت أن الصوم هو ترك الطعام والشراب والوقاع فقط، فقد قال ﷺ: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»(١)، بل تمام الصوم بكف الجوارح كلها عما يكرهه الله تعالى، بل ينبغي أن تحفظ العين عن النظر إلى المكاره، واللسان عن النطق بما لا يعنيك، والأذن عن الاستماع إلى ما حرمه الله؛ فإن المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين، وكذلك تكف جميع الجوارح كما تكف البطن والفرج، ففي الخبر: «خمس يفطرن الصائم: الكذب، والغيبة، والنميمة، والنظر بشهوة، واليمين الكاذبة» ، وقال ﷺ: «إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث، ولا يفسق، ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم»(٢).

ثم اجتهد أن تفطر على طعام حلال، ولا تستكثر فتزيد على ما تأكله كل ليلة، فلا فرق إذا استوفيت ما تعتاد أن تأكله دفعة أو دفعتين، وإنما المقصود كسر شهوتك، وتضعيف قوتك لتقوى بها على التقوى. فإذا أكلت عيش ما فاتك، فقد

(١) ورد في مسند الإمام أحمد بلفظ: (كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الْجُوعُ وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلاَّ السَّهَرُ). مسند الإمام أحمد – مسند أبي هريرة رضي الله عنه – حديث رقم ٩٨١٦، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ورد في صحيح البخاري بلفظ: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ). صحيح البخاري – كتاب الصوم – باب فضل الصوم – حديث رقم ١٩٢٨، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

تداركت به ما فاتك، فلا فائدة في صومك، وقد ثقلت عليك معدتك، وما من وعاء أبغض إلى الله تعالى من بطن مليء من حلال، فكيف إذا مليء من حرام! فإذا عرفت معنى الصوم، فاستكثر منه ما استطعت، فإنه أساس العبادات، ومفتاح القربات، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به»(١) ، وقال ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي فَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»(٢)، وقال ﷺ: «للجنة باب له الريان لا يدخله إلا الصائمون»(٣).

فهذا القدر من شرح الطاعات يكفيك من بداية الهداية، فإذا احتجت إلى الزكاة، وإلى الحج، أو إلى مزيد شرح الصلاة والصيام، فاطلبه مما أوردناه في كتابنا (إحياء علوم الدين).

❁❁❁

(١) ورد في سنن الترمذي بلفظ: (إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ كُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ). سنن الترمذي – كتاب الصوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب ما جاء في فضل الصوم – حديث رقم ٧٦٩، والحديث من طريق أبي هريرة ﷺ.

(٢) مسند الإمام أحمد – مسند أبي هريرة رضي الله عنه – حديث رقم ١٠١٣٧، والحديث من طريق أبي هريرة ﷺ.

(٣) ورد في صحيح البخاري بلفظ: (فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لاَ يَدْخُلُهُ إِلاَّ الصَّائِمُونَ). صحيح البخاري – كتاب بدء الخلق – باب صفة أبواب الجنة – حديث رقم ٣٢٩٣، والحديث من طريق سهل بن سعد بن مالك الساعدي الأنصاري.

القسم الثاني: القول في اجتناب المعاصي

توطئة

اعلم أنَّ للدينِ شطران، أحدهما: ترك المناهي، والآخر: فعل الطاعات. وترك المناهي هو الأشد، فإن الطاعات يقدر عليها كل واحد، وترك الشهوات لا يقدر عليه إلا الصديقون، فلذلك قال رسول الله ﷺ: «المُهاجِرُ مَن هجَرَ السُّوءَ، والمُجاهِدُ مَن جاهَدَ هواهُ»(١) .

واعلم أنك إنما تعصي الله بجوارحك، وإنما هي نعمة من الله عليك وأمانة لديك، فاستعانتك بنعمة الله على معصيته غاية الكفران، وخيانتك في أمانة أودعكها الله غاية الطغيان، فأعضاؤك رعاياك، فانظر كيف ترعاها، فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته.

واعلم أن جميع أعضائك ستشهد عليك في عرصات القيامة بلسان طلق ذلق، أي فصيح، تفضحك به على رؤوس الخلائق، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ

(١) أخرجه ابن ماجة بالشطر الأول، والنسائي في (الكبرى) بالشطر الثاني، كلاهما من حديث فضالة بن عبيد الله بإسنادين جيدين.

أبو حامد الغزَّالي؛ محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين "ويذيله كتاب: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار"**، كتاب الصبر والشكر، ج ٤، ص ٨٣، دار التوفيقية للتراث، القاهرة.

أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴿٢٤﴾﴾[١] ، وقال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴿٦٥﴾﴾[٢] . فاحفظ جميع بدنك من المعاصي، وخصوصًا أعضاءك السبعة، فإن جهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، ولا يتعين لتلك الأبواب إلا من عصا الله تعالى بهذه الأعضاء السبعة، وهي: العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل.

(١) سورة النور: ٢٤

(٢) سورة يس: ٦٥

﴿آداب العين﴾

أما العين: فإنما خلقت لك لتهتدي بها في الظلمات، وتستعين بها في الحاجات، وتنظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض والسماوات، وتعتبر بما فيها من الآيات؛ فاحفظها عن أربع: أن تنظر بها إلى غير محرم، أو إلى صورة مليحة بشهوة نفس، أو تنظر بها إلى مسلم بعين الاحتقار، أو تطلع بها على عيب مسلم.

❁❁❁

﴿آداب الأذن﴾

وأما الأذن: فاحفظها عن أن تصغي بها إلى البدعة، أو الغيبة، أو الفحش، الخوض في الباطل، أو ذكر مساوئ الناس؛ فإنما خلقت لك لتسمع بها كلام الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ، وحكمة أوليائه، وتتوصل باستفادة العلم بها إلى الملك المقيم والنعيم الدائم. فإذا أصغيت بها إلى شيء من المكاره صار ما كان لك عليك، وانقلب ما كان سبب فوزك سبب هلاكك، فهذه غاية الخسران. ولا تظن أن الإثم يختص به القائل دون المستمع؛ ففي الخبر: «أن المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين».

❁❁❁

﴿آداب اللسان﴾

وأما اللسان: فإنما خلق لتكثر به ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه، وترشد به خلق الله تعالى إلى طريقه، وتظهر به ما في ضميرك من حاجات دينك ودنياك. فإذا استعملته في غير ما خلق له، فقد كفرت نعمة الله تعالى فيه، وهو أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق، ولا يَكُبَّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.

فاستظهر عليه بغاية قوتك حتى لا يكبك في قعر جهنم، ففي الخبر: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ لِيُضْحِكَ بِهَا أَصْحَابَهُ فَيَهْوِي بِهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا)، وروى أنه قُتِلَ شهيد في المعركة على عهد رسول الله ﷺ فقال قائل: هنيئًا له الجنة، فقال ﷺ: «وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويبخل بما لا يغنيه»(١).

فاحفظ لسانك من ثمانية:

(الأولى: الكذب)

فاحفظ منه لسانك في الجد والهزل، ولا تعود نفسك الكذب هزلًا فيتداعى إلى الجد، والكذب من أمهات الكبائر، ثم إنك إذا عرفت بذلك، سقطت عدالتك وانتفى قولك، وتزدريك الأعين وتحتقرك.

---

(١) حديث: (استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع ... الحديث)، وفيه: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ وَيَمْنَعُ مَا يَضُرُّهُ؟). أخرجه الترمذي من حديث أنس مختصرًا، وقال: غريب. ورواه ابن أبي الدنيا في (الصمت) بلفظ المصنف بسند ضعيف.

وإذا أردت أن تعرف قُبح الكذب من نفسك، فانظر إلى كذب غيرك، وإلى نفرة نفسك عنه، واستحقارك لصاحبه واستقباحك لما جاء به.

وكذلك فافعل في جميع عيوب نفسك؛ فإنك لا تدري قبح عيوبك من نفسك، بل من غيرك، فما استقبحته من غيرك يستقبحه غيرك منك لا محالة؛ فلا ترض لنفسك ذلك.

الثانية: الخلف في الوعد

فإياك أن تعد بشيء ولا تفي به، بل ينبغي أن يكون إحسانك إلى الناس فعلًا بلا قول، فإن اضطررت إلى الوعد، فإياك أن تخلف إلا لعجز أو ضرورة؛ فإن ذلك من إمارات النفاق وخبائث الأخلاق، قال عليه السلام: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وإن صلى: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[1].

الثالثة: حفظ اللسان من الغيبة

والغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام كذلك ورد في الخبر. ومعنى الغيبة أن تذكر إنسانًا بما يكرهه لو سمعه، فأنت مغتاب ظالم وإن كنت صادقًا.

(١) ورد في مسند الإمام أحمد بلفظ: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ). مسند الإمام أحمد – مسند أبي هريرة رضي الله عنه – حديث رقم ١١٠٨٠، والحديث من طريق الحسن بن أبي الحسن البصري رضي الله عنه.

وإياك وغيبة القراء المرائين، وهو أن تفهم المقصود من غير تصريح فتقول: «أصلحه الله فقد أساءني وغَمَّني ما جرى عليه، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا وإياه»؛ فإن هذا جمع بين خبيثين، أحدهما: الغيبة إذا حصل به التفهم، والآخر: تزكية النفس والثناء عليها بالتجريح لغيرك والصلاح لنفسك. ولكن إن كان مقصودك من قولك: «أصلحه الله» الدعاءَ، فادع له في السر. وإن اغتممت بعيبه، فعلامة أنك لا تريد فضيحته واظهار عيبه، وفي اظهارك الغم بعيبه إظهار تعييبه. ويكفيك زاجرًا عن الغيبة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾(١) . فقد شبهك الله بآكل لحم الميتة؛ فما أجدرك أن تحترز منها، ويمنعك عن غيبة المسلمين؛ أمرٌ لو تفكرت فيه وهو أن تنظر في نفسك، هل فيك عيب ظاهر أو باطن؟ وهل أنت مقارف معصية سرًّا أو جهرًا؟ فإذا عرفت ذلك من نفسك، فاعلم أن عجزه عن التنزه عما نسبته إليه كعجزك، وعذره كعذرك. وكما تكره أن تفضح وتُذْكَرَ عيوبك، فهو أيضًا يكرهه؛ فإن سترته ستر الله عيبك، وإن فضحته سلط الله عليك ألسنة حدادًا، يمزقون عرضك في الدنيا، ثم يفضك الله في الآخرة على رؤوس الخلائق يوم القيامة.

وإن نظرت إلى ظاهرك وباطنك، فلم تَطَّلِعَ فيهما على عيب ونقص في دين ولا دنيا، فاعلم أن جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماقة، ولا عيب أعظم من الحُمق. ولو أراد الله بك خيرًا لبَصَّرَكَ بعيوب نفسك، فرؤيتك نفسك بعين الرضا غاية غباوتك وجهلك. ثم إن كنت صادقًا في ظنك، فاشكر الله تعالى عليه، ولا تفسده بسب الناس، والتَمَضْمُض بأعراضهم؛ فإن ذلك من أعظم العيوب.

---

(١) سورة الحجرات: ١٢

(الرابعة: المراء والجدال ومناقشة الناس في الكلام)

فذلك فيه إيذاء للمخاطب وتجهيل له، وطعن فيه، وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بمزيد الفطنة والعلم، ثم هو مشوش للعيش، فإنك لا تُماري سفيهًا إلا ويؤذيك، ولا تُماري حليمًا إلا ويُقليك ويحقد عليك، فقد قال ﷺ: «من ترك المراء وهو مُبطل بنى الله له بيتاً في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة» (١).

ولا ينبغي أن يخدعك الشيطان ويقول لك: أظهر الحق ولا تداهن فيه، فإن الشيطان أبدًا يستجر الحمقى إلى الشر في معرض الخير، فلا تكن ضُحكة للشيطان يسخر بك، فإظهار الحق حسن مع مَن يقبله منك، وذلك بطريق النصيحة في الخفية لا بطريق المماراة.

وللنصيحة صيغة وهيئة، ويحتاج فيها إلى تلطف، وإلا صارت فضيحة، وكان فسادها أكثر من صلاحها. ومن خالَط متفقهة العصر غلب على طبعه المراء والجدال، وعَسُرَ عليه الصمت، إذ ألقى إليه علماء السوء أن ذلك هو الفضل، والقدرة

(١) وفي رواية لأبي داود والترمذي عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَهُ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي وَسَطِهَا، وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَاهَا).

السقاف؛ علوي أبو بكر محمد، **شرح مراقي العبودية على متن بداية الهداية**، ص ١٢٧، دار الكتب الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.

على المحاجة والمناقشة هو الذي يمتدح به؛ ففر منهم فرارك من الأسد، واعلم أن المراء سبب المقت عند الله وعند الخلق.

(الخامسة: تزكية النفس)

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾[١] ، وقيل لبعض الحكماء: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. فإياك أن تتعود ذلك، واعلم أن ذلك يُنقص من قدرك عند الناس، ويوجب مقتك عند الله. فإذا أردت أن تعرف أن ثناءك على نفسك لا يزيد في قدرك عند غيرك، فانظر إلى أقرانك إذا أثنوا على أنفسهم بالفضل والجاه والمال كيف يستنكره قلبك عليهم، ويستثقله طبعك، وكيف تذمهم عليه إذا فارقتهم؛ فاعلم أنهم أيضًا في حال تزكيتك لنفسك يذمونك في قلوبهم ناجِزًا[٢] ، وسيظهرونه بألسنتهم إذا فارقتهم.

(السادسة: اللعن)

فإياك أن تلعن شيئًا مما خلق الله تعالى من حيوانٍ أو طعامٍ أو إنسانٍ بعينه، ولا تقطع بشهادتك على أحد من أهل القبلة بشركٍ أو كفرٍ أو نفاقٍ؛ فإن المطلع على السرائر هو الله تعالى، فلا تدخل بين العباد وبين الله تعالى. واعلم أنك يوم القيامة لا يقال لك: لِمَ لَمْ تلعن فلانًا، ولم سكت عنه؟ بل لو لم تلعن إبليس طول عمرك،

---

(١) سورة النجم: ٣٢

(٢) ناجِزًا: حاضِرًا.

ولم تشغل لسانك بذكره، لم تُسْئَلْ عنه، ولم تطالب به يوم القيامة. وإذا لعنت أحدًا من خلق الله تعالى، طُولِبْتَ به.

ولا تذمنَّ شيئًا مما خلق الله تعالى، فقد كان النبي ﷺ لا يذم الطعام الرديء قط، بل كان إذا اشتهى شيئًا أكله، وإلا تركه.

(السابعة: الدعاء على الخلق)

احفظ لسانك عن الدعاء على أحدٍ من خلق الله تعالى، وإن ظلمك فَكِلْ(١) أمره إلى الله تعالى؛ ففي الحديث: «إن المظلوم ليدعو على ظالمه حتى يكافئه ثم يكون للظالم فضل عنده يطالب به يوم القيامة»(٢). وطَوَّلَ بعضُ الناسِ لسانَه على الحجّاج، فقال بعض السلف: «إن الله لينتقم للحجاج ممن تعرض له بلسانه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه».

(١) فَوِّضْ أمره لله.

(٢) قال الحافظ العراقي: (حديث: «إِنَّ الْمَظْلُومَ لَيَدْعُو عَلَى الظَّالِمِ حَتَّى يُكَافِئَهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عِنْدَه فَضْلَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ» لم أقف له على أصل، وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف: «مَنْ دَعَا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ فَقَدْ انْتَصَرَ».

أبو حامد الغزَّالي؛ محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين "ويذيله كتاب: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار"**، كتاب آفات اللسان، ج ٣، ص ١٤٧، ١٤٨، دار التوفيقية للتراث، القاهرة.

(الثامنة: المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس)

فاحفظ لسانك منه في الجد والهزل، فإنه يريق ماء الوجه ويسقط المهابة، ويستجر الوحشية، ويؤذي القلوب، وهو مبدأ اللجاج[١] والغضب والتصارم[٢]، ويغرس الحقد في القلوب، فلا تمازح أحدًا، فإن مازحوك أحد فلا تجبه، وأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وكن من الذين إذا مروا باللغو مروا كرامًا.

فهذه مجامع آفات اللسان، ولا يعينك عليه إلا العزلة، وملازمة الصمت إلا بقدر الضرورة، فقد كان أبوبكر الصديق رضي الله عنه يضع حجرًا في فيه ليمنعه ذلك من الكلام بغير ضرورة، ويشير إلى لسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد كلها». فاحترز منه بجهدك، فإنه أقوى أسباب هلاكك في الدنيا والآخرة.

❁❁❁

﴿آداب البطن﴾

وأما البطن: فاحفظه من تناول الحرام والشبهة، واحرص على طلب الحلال، فإذا وجدته فاحرص على أن تقتصر منه على ما دون الشبع، فإن الشبع يُقسي القلب، ويُفسد الذهن، ويبطل الحفظ، ويُثقل الأعضاء عن العبادة والعلم، ويقوي الشهوات، وينصر جنود الشيطان.

---

(١) اللجاج: الخصومة.

(٢) التصارم: التقاطع في الصحبة.

والشبع من الحلال مبدأ كل شر، فكيف من الحرام وطلب الحلال فريضة على كل مسلم، والعبادة مع أكل الحرام كالبناء على السرجين(١) .

فإذا قنعت في السنة بقميص خشن، وفي اليوم والليلة برغيفين من الخشكار(٢) ، وتركت التلذذ بأطيب الأُدُم(٣) ، لم يعوزك من الحلال ما يكفيك، والحلال كثير.

وليس عليك أن تتيقن بواطن الأمور، بل عليك أن تحترز مما تعلم أنه حرام أو تظن أنه حرام ظنًّا حصل من علامة ناجِزة مقدرة بالمال. أما المعلوم فظاهر، وأما المظنون بعلامةٍ فهو مال السلطان وعُمَّالِه، ومال مَن لا كسب له إلا من النياحة، أو بيع الخمر، أو الربا، أو المزامير، وغير ذلك من آلات اللهو المحرمة. فإن من علمت أن أكثر ماله حرام قطعًا، فما تأخذه من يده، وإن أمكن أن يكون حلالًا نادرًا، فهو حرام؛ لأنه الغالب على الظن. ومن الحرام المحض ما يؤكل من الأوقاف من غير شرط الواقِف، فمن لم يشتغل بالتفقه فما يأخذه من المدارس حرام، ومَن ارتكب معصية ترد بها شهادته، فما يأخذه باسم الصوفية مِن وَقْفٍ أو غيره فهو حرام. وقد ذكرنا مداخل الشبهات والحلال والحرام في كتاب مفرد من كتب (إحياء علوم الدين)، فعليك بطلبه؛ فإن معرفة الحلال وطلبه فريضة على كل مسلم، كالصلوات الخمس.

❁❁❁

(١) السِرجين: الزَبَل؛ أي الزبالة.

(٢) الخشكار: الرديء من كل شيء.

(٣) الأُدُم: جمع (إدام)؛ أي ما يسيغ الطعام إلى الحَلْقِ كاللحم مثلًا فإنه إدام للخبز مثلًا.

﴿آداب الفرج﴾

وأما الفرج: فاحفظه عن كل ما حرم الله تعالى، وكن كما قال الله تعالى: (﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾)[١]. ولا تصل إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر، وحفظ القلب عن الفكر، وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع؛ فإن هذه محركات للشهوة ومغارسها.

❁❁❁

﴿آداب اليدين﴾

وأما اليدان: فاحفظهما عن أن تضرب بهما مسلمًا، أو تتناول بهما مالًا حرامًا، أو تؤذي بهما أحدًا من الخلق، أو تخون بهما في أمانة أو وديعة، أو تكتب بهما ما لا يجوز النطق به، فإن القلم أحد اللسانين، فاحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان عنه.

❁❁❁

---

(١) سورة المؤمنون: ٥، ٦

«آداب الرجلين»

وأما الرجلان: فاحفظهما عن أن تمشي بهما إلى حرامٍ، أو تسعى بهما إلى باب سلطان ظالم؛ فإن المشي إلى السلاطين الظلمة من غير ضرورة وارهاق معصية كبيرة؛ فإنه تواضع لهم وإكرام لهم على ظلمهم. وقد أمر الله تعالى بالإعراض عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾(١) الآية، وإن ذلك لسبب طلب مالهم فهو سعى إلى حرام، وقد قال ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ صَالِحٍ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ»، وهذا في غنيّ صالح، فما ظنك بالغنيّ الظالم؟ وعلى الجملة، فحركاتك وسكناتك بأعضائك نعمة من نعم الله تعالى عليك، فلا تحرك شيئًا منها في معصية الله تعالى أصلًا، واستعملها في طاعة الله تعالى.

واعلم أنك إن قصرت فعليك وباله، وإن شمرت فإليك تعود ثمرته، والله غني عنك وعن عملك، وإنما كل نفس بما كسبت رهينة. وإياك أن تقول: «إن اللهَ كريمٌ رحيمٌ يغفرُ الذنوبَ للعصاةِ»، فإن هذه كلمة حق أريد بها باطل، وصاحبها ملقب بالحماقة، بتلقيب رسول الله ﷺ حيث قال: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِيَّ»(٢) . واعلم أن قولك

---

(١) سورة هود: ١١٣

(٢) ورد الحديث في سنن الترمذي بلفظ: (الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ). سنن الترمذي – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – حديث رقم ٢٦٤٧، والحديث من طريق شداد بن أوس بن ثابت الأنصاري، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ.

هذا أيضًا هي قول من يريد أن يصير فقيهًا في علوم الدين واشتغل بالبطالة وقال: «إن الله كريم رحيم قادر على أن يفيض على قلبي من العلوم ما أفاضه على قلوب أنبيائه وأوليائه من غير جهد وتكرار وتعلم وهو كقول من يريد مالًا فترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطلَ، وقال: إن الله كريم رحيم وله خزائن السموات والأرض وهو قادر على أن يطلعني على كنز من كنوز أستغني به عن الكسب، فقد فعل ذلك لبعض عباده»، فأنت إذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمقتهما، وسخرت منهما، وإن كان ما وصفاه من كرم الله تعالى وقدرته صدقًا وحقًا، فكذلك يضحك عليك أرباب البصائر في الدين، إذا طلبت المغفرة بغير سعي لها، والله وتعالى يقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾(١) ، ويقول: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾(٢)، ويقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾(٣).

فإذا لم تكن تترك السعي في طلب العلم والمال اعتمادًا على كرمه، فكذلك لا تترك التزود للآخرة، ولا تفتر؛ فإن رب الدنيا والآخرة واحد، وهو فيهما كريم رحيم، ليس يزيد له كرم بطاعتك، وإنما كرمه في أن ييسر لك طريق الوصول إلى الملك المقيم والنعيم الدائم المخلد، بالصبر على ترك الشهوات أيامًا قلائل، وهذا نهاية الكرم.

---

(١) سورة النجم: ٣٩

(٢) سورة الطور: ١٦

(٣) سورة الانفطار: ١٣، ١٤

فلا تحدث نفسك بتهويسات[١] البطالين، واقتد بأولى العزم والنهي من الأنبياء والصالحين، ولا تطمع في أن تحصد ما لم تزرع، وليت من صام وصَلَّى وجاهد واتقى، غُفِرَ له.

فهذه جمل مما ينبغي أن تحفظ عنه جوارحك الظاهرة، وأعمال هذه الجوارح إنما تترشح من صفات القلب؛ فإن أردت حفظ الجوارح فعليك بتطهير القلب؛ فهو تقوى الباطن، والقلب هو المضغة التي إذا صَلُحَتْ صلح الجسد بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد، فاشتغل بإصلاحه لتصلح به جوارحك.

❁❁❁

﴿القول في معاصي القلب﴾

اعلم أن الصفات المذمومة في القلب كثيرة، وطريق تطهير القلب من رذائلها طويل، وسبيل العلاج فيها غامض، وقد اندرس بالكلية علمه وعمله؛ لغفلة الخلق عن أنفسهم واشتغالهم بزخارف الدنيا.

وقد استقصينا ذلك كله في كتاب (إحياء علوم الدين) في ربع المهلكات وربع المنجيات، ولكنا نحذرك الآن ثلاثًا من خبائث القلب، هي: الغالبة على متفقهة العصر؛ لتأخذ منها حذرك؛ فإنها مهلكات في أنفسها، وهي أمهات لجملة من الخبائث سواها، وهي: (الحسد)، و(الرياء)، و(العُجْب)؛ فاجتهد في تطهير قلبك منها؛ فإن

(١) تهويسات: جمع تهويسة، والهَوَسُ طرفٌ من الجنونِ.

قدرت عليها فتعلّمْ كيفية الحذر من بقيتها من ربع المهلكات. فإن عجزت عن هذا، فأنت عن غيره أعجز.

ولا تظنن أنك تسلم بنية صالحة في تعلم العلم، وفي قلبك شيء من الحسد والرياء والعجب، وقد قال ﷺ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»(١) .

١) الحسد

أما الحسد: فهو متشعب من الشح، فإن البخيل هو الذي يبخل بما في يده على غيره، والشحيح هو الذي يبخل بنعمة الله تعالى وهي في خزائن قدرته، لا في خزائنه، على عباد الله فشحه أعظم. والحسود هو الذي يشق عليه إنعام الله تعالى من خزائن قدرته، على عبد من عباده بعلمٍ أو مالٍ أو محبةٍ في قلوب الناس، أو حظ من الحظوظ، حتى أنه ليحب زوالها عنه، وإن لم يحصل له بذلك شيء من تلك النعمة؛ فهذا منتهى الخبث؛ فلذلك قال رسول الله ﷺ: (الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ) (٢) .

---

(١) أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في (الشعب) من حديث أنس بإسناد ضعيف.
أبو حامد الغزَّالي؛ محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين "ويذيله كتاب: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار"**، كتاب العلم، بيان العلم الذي هو فرض عين، ج ١، ص ٢٧، دار التوفيقية للتراث، القاهرة.

(٢) سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب في الحسد – حديث رقم ٤٩٠٥، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

والحسود هو المعذب الذي لا يرحم، ولا يزال في عذاب دائم في الدنيا؛ فإن الدنيا لا تخلو قط عن خَلْقٍ كثيرٍ من أقرانه ومعارفه ممن أنعم الله عليهم بعلمٍ أو مالٍ أو جاهٍ، فلا يزال في عذابٍ دائمٍ في الدنيا إلى موته، ولعذاب الآخرة أشد وأكبر؛ بل لا يصل العبد إلى حقيقة الإيمان ما لم يحب لسائر المسلمين ما يحب لنفسه، بل ينبغي أن يساويهم المسلمين في السراء والضراء؛ فالمسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى سائر الجسد. فإن كنت لا تصادف هذا في قلبك، فاشتغالك بطلب التخلص من الهلاك أهم من اشتغالك بنوادر الفروع وعلم الخصومات.

٢) الرياء

وأما الرياء: فهو الشرك الخفي، وهو أحد الشِّرْكَين، وذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق، لتنال بها الجاه والحشمة[1]، وحب الجاه من الهوى المتبع، وفيه هلكَ أكثرُ الناسِ، فما أهلكَ الناسُ إلا الناس، ولو أنصف الناس حقيقة لعلموا أن أكثر ما هم فيه من العلوم والعبادات فضلًا عن أعمال العادات، ليس يحملهم عليه إلا مراءاة الناس، وهي محبطة للأعمال، كما ورد الخبر: «أن الشهيد يُؤمر به يوم القيامة إلى النار، فيقول: يا رب استشهدتُ في سبيلك، فيقول الله تعالى: أردتَ أن يقال إنك شجاع، وقد قيل ذلك، وذلك أجرك»، وكذلك يقال للعالم والحاج والقارئ.

---

(١) الحِشْمَة: الاستحياء لتكون مُعَظَّمًا بين الناس.

٣) العُجب والكبر والفخر

وأما العجب والكبر والفخر: فهو الداء العضال، وهو نظر العبد إلى نفسه بعين العز والاستعظام، وإلى غيره بعين الاحتقار، ونتيجته على اللسان أن يقول: (أنا)، و(أنا) كما قال إبليس اللعين: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(١) ، وثمرته في المجالس الترفع والتقدم وطلب التصدر فيها، وفي المحاورة الاستنكاف من أن يُرَدَّ كلامه عليه.

والمتكبر هو الذي إن وُعِظَ أَنِفَ، أو وَعَظَ عَنَّفَ، فكل مَنْ رأى نفسه خيرًا من أحد من خلق الله تعالى فهو متكبر. بل ينبغي لك أن تعلمَ أنَّ الخيرَ من هو خير عند الله في دار الآخرة، وذلك غيب، وهو موقوف على الخاتمة؛ فاعتقادك في نفسك أنك خير من غيرك جهل محض، بل ينبغي أن لا تنظر إلى أحد إلا وترى أنه خير منك، وأن الفضل له على نفسك، فإن رأيت صغيرًا، قلت: «هذا لم يعص الله وأنا عصيته، فلا شك أنه خير مني»، وإن رأيت كبيرًا، قلت: «هذا قد عبد الله قبلي، فلا شك أنه خير مني»، وإن رأيت كبيرًا، قلت: «هذا قد عبد الله قبلي، فلا شك أنه خير مني»، وإن كان عالمًا، قلت: «هذا قد أُعْطَى ما لم أعط، وبلغ ما لم أبلغ، وعَلِمَ ما جَهِلْتُ، فكيف أكون مثله»، وإن كان جاهلًا، قلت: «هذا عصى الله بجهلٍ، وأنا عصيتُه بعلمٍ، فحجة الله عليَّ آكد، وما أدري بم يختم لي وبم يختم له؟»، وإن كان كافرًا، قلت: «لا أدري، عسى أن يُسْلِمَ ويُخْتَمَ له بخير العمل، وينسل بإسلامه من الذنوب كما تنسل الشعرة من العجين. وأما أنا، والعياذ بالله،

---

(١) سورة الأعراف: ١٢

فعسى أن يضلني الله، فأكفر، فيُخْتَمَ لي بشرِّ العمل؛ فيكون غدًا هو من المقربين، وأنا أكون من المعذبين».

فلا يخرج الكبر من قلبك إلا بأن تعرف أن الكبير من هو كبير عند الله تعالى، وذلك موقوف على الخاتمة، وهي مشكوك فيها؛ فيشغلك خوف الخاتمة عن أن تتكبر مع الشك فيها على عباد الله تعالى، فيقينك وإيمانك في الحال لا يناقض تجويزك التغير في الاستقبال؛ فإن الله مقلب القلوب يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

● حديث جامع في معاصي القلب

والأخبار في الحسد والكبر والرياء والعُجب كثيرة، ويكفيك فيها حديث واحد جامع. فقد روى ابن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ: «يا معاذ حدثني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ»، قال: «فبكى معاذ حتى ظننتُ أنه لا يسكت»، ثم سكتَ، ثم قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لي: « إنِّي مُحَدِّثُكَ حديثًا إنْ أنتَ حَفِظْتَه نَفَعَكَ عِنْدَ اللهِ وإنْ أنتَ ضَيَّعْتَه ولم تَحفَظْه انقطَعَتْ حُجَّتُكَ عند اللهِ يومَ القيامةِ، يا مُعاذُ إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعَالَى خلَقَ سَبعةَ أَمْلاكٍ قبل أنْ يَخلُقَ السَّمواتِ والأرضَ، فجَعَلَ لكلِّ سماءٍ مِنَ السَّبعةِ مَلَكًا بوَّابًا عليها، فتَصعَدُ الحَفَظةُ بعمَلِ العبدِ مِن حين أصبَحَ إلى أنْ أمسَى له نورٌ كنُورِ الشَّمسِ، حتَّى إذا صَعِدَتْ به إلى السَّماءِ الدُّنيا ذكَّرَتْه فكَثَّرَتْه، فيقولُ المَلَكُ للحَفَظةِ: اضرِبُوا بهذا العمَلِ وَجهَ صاحِبِه، أنا صاحِبُ الغِيبةِ، أمَرَني ربِّي أنْ لَّا أدَعَ عمَلَ مَنِ اغتابَ النَّاسَ يُجاوِزُني إلى غيري، قال: ثمَّ تأتي الحَفَظةُ بعمَلٍ صالِحٍ مِن أعمالِ العبدِ فتَمُرُّ فتُزَكِّيه وتُكَثِّرُه حتَّى تَبلُغَ به

إلى السَّماءِ الثَّانيةِ، فيقولَ لهمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بالسَّماءِ الثَّانيةِ: قِفُوا واضرِبُوا بهذا العمَلِ وَجهَ صاحِبِه، إنَّه أراد بعمَلِه هذا عَرَضَ الدُّنيا، أمَرَني ربِّي أنْ لَّا أدَعَ عمَلَه يجُاوِزُني إلى غيري، إنَّه كان يَفتَخِرُ على النَّاسِ في مَجالِسِهم، قال: وتَصعَدُ الحَفَظةُ بعمَلِ العبدِ يَبتَهِجُ نورًا مِن صَدَقة وصِيامٍ وصلاةٍ قد أَعجَبَ الحَفَظةَ فتُجاوِزُ به إلى السَّماءِ الثَّالثةِ، فيقولُ لهمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بها: قِفُوا واضرِبُوا بهذا العمَلِ وَجهَ صاحِبِه، أنا مَلَكُ الكِبْرِ أمَرَني ربِّي ألَّا أدَعَ عمَلَه يُجاوِزُني إلى غيري، إنَّه كان يتكَبَّرُ على النَّاس في مجالِسِهم، قال: وتَصعَدُ الحَفَظةُ بِعمَلِ العبدِ يزهرُ كما يُزهِرُ الكوكَبُ الدُّرِّيُّ له دَوِيٌّ مِن تَسبيحٍ وصلاةٍ وحَجٍّ وعُمْرةٍ حتَّى يُجاوِزُوا به إلى السَّماءِ الرَّابعةِ، فيقولُ لهمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بها: قِفُوا واضرِبُوا بهذا العملِ وَجهَ صاحِبِه، اضرِبُوا ظَهرَه وبَطنَه، أنا صاحِبُ العُجْبِ أمَرَني ربِّي ألَّا أدَعَ عمَلَه يُجاوِزُني إلى غيري، إنَّه كان إذا عمِلَ عمَلًا أَدخَلَ العُجْبَ في عمَلِه، قال: وتَصعَدُ الحَفَظةُ بعمَلِ العبدِ حتَّى يُجاوِزُوا به إلى السَّماءِ الخامسةِ كأنَّه العَروسُ المَزْفُوفةُ إلى بَعْلِها، فيقولُ لهمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بها: قِفُوا واضرِبُوا بهذا العملِ وَجهَ صاحِبِه واحمِلُوه على عاتِقِه، أنا مَلَكُ الحَسَدِ، إنَّه كان يَحسُدُ النَّاسَ ممَّن يَتعلَّمُ ويَعمَلُ بمِثلِ عَمَلِه، وكلُّ مَن كان يأخُذُ فَضلًا مِنَ العبادةِ يَحسُدُهم ويَقَعُ فيهم، أمَرَني ربِّي ألَّا أدَعَ عمَلَه يُجاوِزُني إلى غيري، قال: وتَصعَدُ الحَفَظةُ بعَمَلِ العبدِ مِن صلاةٍ وزكاةٍ وحَجٍّ وعُمْرةٍ وصِيامٍ فيُجاوِزُونَ به إلى السَّماءِ السَّادسةِ، فيقولُ لهمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بها: قِفُوا واضرِبُوا بهذا العملِ وَجهَ صاحِبِه، إنَّه كان لا يَرحَمُ إنسانًا قطُّ مِن عبادِ اللهِ أصابَه بَلاءٌ أو ضُرٌّ، بل كان يَشْمَتُ به، أنا مَلَكُ الرَّحمةِ أمَرَني ربِّي ألَّا أدَعَ عمَلَه يُجاوِزُني إلى غيري، قال: وتَصعَدُ الحَفَظةُ بعمَلِ العبدِ إلى السَّماءِ السَّابعةِ مِن صَومٍ وصلاةٍ ونَفَقةٍ واجتِهادٍ ووَرَعٍ، له دَوِيٌّ كدَوِيِّ الرَّعدِ وضَوءٌ كضَوءِ الشَّمسِ معه ثلاثةُ آلافِ مَلَكٍ فيُجاوِزونَ به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيقولُ لهمُ المُوَكَّلُ

بها: قِفُوا واضرِبُوا بهذا العملِ وَجهَ صاحِبِه واضرِبُوا جَوارِحَه، أَقْفِلوا على قَلبِه، إنِّي أَحْجُبُ عن ربِّي كلَّ عملٍ لم يُرَدْ به وَجهُ ربِّي، إنَّه أراد بعمَلِه غيرَ اللهِ، إنَّه أراد به رِفْعةً عند الفُقَهاءِ وذِكرًا عند العُلماءِ وصَوتًا في المَدائِنِ، أمَرَني ربِّي ألَّا أدَعَ عمَلَه يُجاوِزُني إلى غيري وكلَّ عمَلٍ لم يَكُنْ خالِصًا فهو رِياءٌ ولا يَقبَلُ اللهُ عمَلَ المُرائي، قال: وتَصعَدُ الحَفَظةُ بعمَلِ العبدِ مِن صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحَجٍّ وعُمْرةٍ وخُلُقٍ حَسَنٍ وصَمْتٍ وذِكرٍ للهِ تعالى، وتُشَيِّعُه ملائكةُ السَّمواتِ حتَّى يَقطَعوا به الحُجُبَ كلَّها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فيَقِفونَ بين يدَيه ويَشهَدونَ له بالعمَلِ الصَّالِحِ المُخلَصِ للهِ، قال: فيقولُ اللهُ لهم: أنتمُ الحَفَظةُ على عمَلِ عبدي وأنا الرَّقيبُ على نفسِه، إنَّه لم يُرِدْني بهذا العملِ وأراد به غيري فعلَيه لَعنتي، فتقولُ الملائكةُ كلُّها: عليه لَعْنتُكَ ولَعْنتُنا، وتقولُ السَّمواتُ كلُّها: عليه لَعْنةُ اللهِ ولَعْنتُنا، وتَلعَنُه السَّمواتُ السَّبعُ ومَن فيهِنَّ، قال مُعاذٌ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنتَ رسولُ اللهِ وأنا مُعاذٌ، قال: اقتَدِ بي وإنْ كان في عَمَلِكَ تقصيرٌ، يا مُعاذُ، حافِظْ على لِسانِكَ مِنَ الوَقيعةِ في إخوانِكَ مِن حَمَلةِ القرءانِ، واحمِلْ ذُنوبَكَ عليكَ ولا تُحمِّلْها عليهم، ولا تُزَكِّ نفسَكَ بذَمِّهم، ولا تَرفَعْ نفسَكَ عليهم، ولا تُدخِلْ عمَلَ الدُّنيا في عمَلِ الآخِرةِ، ولا تَتكبَّرْ في مَجلِسِكَ لكي يَحذَرَ النَّاسُ مِن سُوءِ خُلُقِكَ، ولا تُناجِ رجلًا وعنده آخَرُ، ولا تَتعظَّمْ على النَّاسِ فيَنقَطِعَ عنكَ خيرُ الدُّنيا والآخِرةِ، ولا تُمَزِّقِ النَّاسَ فتُمَزِّقَكَ كلابُ النَّارِ يومَ القيامةِ في النَّارِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾(١)، أتَدري ما هِيَ يا مُعاذُ؟ قلتُ: ما هِيَ بأبي أنتَ وأمِّي؟ قال: كلابٌ في النَّارِ تَنشَطُ اللَّحمَ والعَظمَ، قلتُ: بأبي أنتَ وأمِّي فمَن يُطيقُ هذه الخِصالَ؟ ومَن يَنجو منها؟ قال: يا مُعاذُ، إنَّه لَيَسيرٌ على مَن يَسَّرَه اللهُ عليه». قال خالد

(١) سورة النازعات: ٢

بن معدان: «فما رأيتُ أحدًا أكثر تلاوة للقرءان العظيم من معاذ لهذا الحديث العظيم».

فتأمل أيها الراغب في العلم هذه الخصال، واعلم أن أعظم الأسباب في رسوخ هذه الخبائث في القلب: طلب العلم لأجل المباهاة والمنافسة، فالعامي بمعزل عن أكثر هذه الخصال، والمتفقه مستهدف لها، وهو مُعَرَّضٌ للهلاك بسببها؛ فانظر أي أمورك أهم، أتتعلم كيفية الحذر من هذه المهلكات، وتشتغل بإصلاح قلبك وعمارة آخرتك أم الأهم أن تخوض مع الخائضين، فتطلب من العلم ما هو سبب زيارة الكبر والرياء والحسد والعجب، حتى تهلك مع الهالكين؟

واعلم أن هذه الخصال الثلاث من أمهات خبائث القلب، ولها مغرس واحد، وهو حب الدنيا؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»(١)، ومع هذا فالدنيا مزرعة للآخرة فمن أخذ من الدنيا بقدر الضرورة، ليستعين بها على الآخرة، فالدنيا مزرعته؛ ومن أراد الدنيا ليتنعم بها، فالدنيا مهلكته.

فهذه نبذة يسيرة من ظاهر علم التقوى، وهي بداية الهداية، فإن جربت بها نفسك وطاوعتك عليها، فعليك بكتاب (إحياء علوم الدين) لتعرف كيفية الوصول إلى باطن التقوى.

---

(١) روى هذا الحديث البيهقيُّ عن الحسن البصريِّ مُرسلًا، كذا في (الجامع الصغير) وشرحه. وقال الزرقاني: «وهذا من كلام مالك بن دينار كما رواه ابن أبي الدنيا، أو من كلام عيسى عليه السلام كما رواه البيهقي في (الزهد)، وقال في (شعب الإيمان): هذا لا أصل له عن النبي ﷺ، إنه من مراسيل الحسن البصري».

فإذا عَمَّرْتَ بالتقوى باطن قلبك، فعند ذلك ترتفع الحُجُب بينك وبين ربك، وتنكشف لك أنوار المعارف، وتنفجر من قلبك ينابيع الحكمة، وتتضح لك أسرار الملك والملكوت، ويتيسر لك من العلوم ما تستحقر به هذه العلوم المحدثة التي لم يكن لها ذكر في زمن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين.

وإن كنت تطلب العلم من القيل والقال، والمراء والجدال، فما أعظم مصيبتك وما أطول تعبك وما أعظم حرمانك وخسرانك! فاعمل ما شئت، فإن الدينا التي تطلبها بالدين لا تسلم لك، والآخرة تسلب منك، فمن طلب الدنيا بالدين خسرهما جميعًا، ومن ترك الدنيا للدين ربحهما جميعًا.

فهذه جمل الهداية إلى بداية الطريق في معاملتك مع الله تعالى بأداء أوامره واجتناب نواهيه. وأشير عليك الآن بجمل من الآداب لتؤاخذ بها نفسك في مخالطتك مع عباد الله تعالى وصحبتك معهم في الدنيا.

❖❖❖

القسم الثالث: القول في آداب الصحبة والمعاشرة مع الخالِق سبحانه وتعالى ومع الخَلْقِ

﴿آداب الصحبة مع الله﴾

اعلم أن صاحبك الذي لا يفارقك في حضرك وسفرك ونومك ويقظتك، بل في حياتك وموتك، هو ربك وسيدك ومولاك وخالقك، ومهما ذكرته فهو جليسك، إذ قال الله تعالى: «أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي».

ومهما انكسر قلبك حزنًا على تقصيرك في حق دينك، فهو صاحبك وملازمك، إذ قال الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم مِنْ أَجْلِي».

فلو عرفته حق معرفته لاتخذته صاحبًا وتركت الناس جانبًا. فإن لم تقدر على ذلك في جميع أوقاتك، فإياك أن تخلي ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه لمولاك وتتلذذ معه بمناجاتك، وعند ذلك فعليك أن تتعلم آداب الصحبة مع الله تعالى.

وآدابها: إطراق الرأس، وغض الطرف، وجمع الهم، ودوام الصمت، وسكون الجوارح، ومبادرة الأمر، واجتناب النهي، وقلة الاعتراض على القدر، ودوام الذكر، وملازمة الفكر، وإيثار الحق على الباطل، والإياس عن الخلق، والخضوع تحت الهيبة والانكسار تحت الحياء، والسكون عن حيل الكسب ثقة بالضمان والتوكل على فضل الله معرفة بحسن الاختيار.

وهذا كله ينبغي أن يكون شعارك في جميع ليلك ونهارك؛ فإنها آداب الصحبة مع صاحب لا يفارقك، والخلق يفارقونك في بعض أوقاتك.

❁❁❁

﴿آداب العالم﴾

وإن كنت عالمًا، فآداب العالِم سبعة عشر: الاحتمال، ولزوم الحلم، والجلوس بالهيبة على سمت الوقار مع إطراق الرأس، وترك الكِبر على جميع العباد إلا على الظلمة زجرًا لهم عن الظلم، وإيثارًا للتواضع في المحافل والمجالس، وترك الهزل والدعابة، والرفق بالمتعلم، والتأني بالمتعجرف، وإصلاح البليد بحسن الارشاد، وترك الحرد[1] عليه، وترك الأنفة من قول: (لا أدري)، وصرف الهمة إلى السائل وتفهم سؤاله، وقبول الحجة، والانقياد للحق، والرجوع إليه عند الهفوة، ومنع المتعلم عن كل علم يضره، وزجره عن أن يريد بالعلم النافع غير وجه الله تعالى، وصد المتعلم عن أن يشغل نفسه بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين. وفرض عينه إصلاح ظاهره وباطنه بالتقوى، ومؤاخذة نفسه بالتقوى ليقتدي المتعلم أولًا بأعماله، ويستفيد ثانيًا من أقواله.

❁❁❁

---

(١) الحَرَدُ: الغضب والتعريض به.

﴿آداب المتعلم﴾

وإن كنت متعلمًا، فآداب المتعلم مع العالِم: أن يبدأه بالتحية والسلام، وأن يُقِلَّ بين يديه الكلام، ولا يتكلم ما لم يسأله أستاذه، ولا يسأل أولًا ما لم يستأذن، ولا يقول في معارضة قوله: قال فلان بخلاف ما قلت، ولا يشير عليه بخلاف رأيه، فيرى أنه أعلم بالصواب من أستاذه، ولا يشاور جليسه في مجلسه، ولا يلتفت إلى الجوانب، بل يجلس مطرقًا ساكنًا متأدبًا كأنه في الصلاة، ولا يكثر عليه السؤال عند ملله، وإذا قام، قام له، ولا يتبعه بكلامه وسؤاله، ولا يسأله في طريقه إلى أن يبلغ إلى منزله، ولا يسئ الظن به في أفعال ظاهرها منكرة عنده، فهو أعلم بأسراره، وليذكر عند ذلك قول موسى للخضر - عليهما السلام: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ٧١﴾(١)، وكونه مخطئًا في إنكاره اعتمادًا على ظاهره.

❁❁❁

﴿آداب الولد مع الوالدين﴾

وإن كان لك والدان، فآداب الولد مع الوالدين: أن يسمع كلامهما، ويقوم لقيامهما، ويمتثل لأمرهما، ولا يمشي أمامهما، ولا يرفع صوته فوق أصواتهما، ويلبي دعوتهما، ويحرص على مرضاتهما، ويخفض لهما جناح الذل، ولا يمن عليهما بالبر

(١) سورة الكهف: ٧١

لهما ولا بالقيام لأمرهما، ولا ينظر إليهما شزرًا، ولا يقطب وجهه في وجههما، ولا يسافر إلا بإذنهما.

أصناف الناس في العلاقة بالمرء:

واعلم أن الناس بعد هؤلاء في حقك ثلاثة أصناف: إما أصدقاء، وإما معاريف، وإما مجاهيل.

❁❁❁

﴿آداب العلاقة بالعوام المجهولين﴾

فإن بليت بالعوام المجهولين، فآداب مجالستهم: ترك الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم، والاحتراز عن كثرة لقائهم والحاجة إليهم، والتنبيه على منكراتهم باللطف والنصح عند رجال القبول منهم.

❁❁❁

﴿آداب العلاقة بالإخوان والأصدقاء﴾

وأما الإخوان والاصدقاء فعليك فيهم وظيفتان:

الوظيفة الأولى: شروط الصحبة والصداقة: إحداهما: أن تطلب أولًا شروط الصحبة والصداقة، فلا تؤاخ إلا من يصلح للإخوة والصداقة، قال رسول الله ﷺ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»(١).

فإذا طلبت رفيقًا ليكون شريكك في التعلم، وصاحبك في أمر دينك ودنياك، فراع فيه خمس خصال:

الأولى: العقل، فلا خير في صحبة الأحمق، فإلى الوحشة والقطيعة يرجع آخرها، وأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن ينفعك، والعدو العاقل خير من الصديق الأحمق، قال علي رضي الله عنه:

فَلا تَصحَب أَخَا الجَهلِ وَإِيّاكَ وَإِيّاهُ
فَكَم مِن جاهِلٍ أَردى حَلِيمًا حِينَ واخاهُ
يُقاسُ المَرءُ بِالمَرءِ إذا ما المَرءُ ماشاهُ
كَحَذو النَعلِ بِالنَعلِ إِذا ما النَعلُ حاذاهُ
وَلِلشَيءِ مِنَ الشَيءِ مَقايِيسُ وَأَشباهُ

(١) مسند الإمام أحمد – مسند أبي هريرة رضي الله عنه – حديث رقم ٨٥٣٣، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

وَلِلقَلبِ عَلى القَلبِ دَليلٌ حِينَ يَلقاهُ

الثانية: حسن الخلق؛ فلا تصحب من ساء خلقه، وهو الذي لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة. وقد جمعه علقمة العطاردي - رحمه الله تعالى - في وصيته لابنه لما حضرته الوفاة، قال: «يا بني، إذا أردت صحبة إنسان، فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك. اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى منك سيئة سدها. اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن حاولت أمرًا أمرك، وإن تنازعتما في شر آثرك».

وقال علي رضي الله عنه رجزًا:

إِن أَخاكَ الحَقُ مَن كانَ مَعَك وَمَن يَضر نَفسه لِيَنفَعَك

وَمَن إِذا ريبَ الزَمانُ صَدعَكَ شَتَّتَ فِيكَ شَملَهُ لِيَجمَعَك

الثالثة: الصلاح؛ فلا تصحب فاسقًا مُصِرًّا على معصية كبيرة، لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غوائله، بل يتغير بتغير الأحوال والأعراض، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾(١) . فاحذر صحبة الفاسق؛ فإن مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية المعصية، وتُهَوِّنُ عليك أمرها، ولذلك هان على

(١) سورة الكهف: ٢٨

القلوب معصية الغيبة لإلفهم لها، ولو رأوا خاتمًا من ذهب أو ملبوسًا من حرير على فقيهٍ لاشتد إنكارهم عليه، والغيبة أشد من ذلك.

الرابعة: ألا يكون حريصًا على الدنيا، فصحبة الحريص على الدنيا سُمٌّ قاتل؛ لأن الطباعَ مجبولةٌ على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري، فمجالسة الحريص تزيد في حرصك، ومجالسة الزاهد تزيد في زهدك.

الخامسة: الصدق، فلا تصحب كذَّابًا، فإنك منه على غرور، فإنه مثل السراب، يُقَرِّبُ منك البعيد، ويُبْعِدُ منك القريب.

ولعلك تعدم اجتماع هذه الخصال في سكان المدارس والمساجد، فعليك بأحد أمرين: إما العزلة والانفراد، ففيها سلامتك، وإما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم، بأن تعلم أن الإخوة ثلاثة: أخ لآخرين فلا تراع فيه إلا الدين، وأخ لدنياك فلا تراع فيه إلا الخلق الحسن، وأخ لتأنس به فلا تراع فيه إلا السلامة من شره وفتنته وخبثه.

والناس ثلاثة: (أحدهم) مثله مثل الغذاء لا يُستغنى عنه، و(الآخر) مثله مثل الدواء يُحتاج إليه في وقت دون وقت، و(الثالث) مثله مثل الداء لا يُحتاج إليه قط، ولكن العبد قد يتسلى به، وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع، فتجب مداراته إلى الخلاص منه. وفي مشاهدته فائدة عظيمة، إنْ وُفِّقْتَ لها، وهو أن تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه، فالسعيد من وعظ بغيره، والمؤمن مرآة المؤمن، وقيل لعيسى عليه السلام: «من أدبك؟ فقال: ما أدبني أحد، ولكن رأيتُ جهلَ

الجاهلِ فاجتنبته». ولقد صدق صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم، فلو اجتنب الناس ما يكرهونه من غيرهم لكَمُلَتْ آدابهم واستغنوا عن المؤدبين.

الوظيفة الثانية: مراعاة حقوق الصحبة

فمهما انعقدت الشركة، وانتظمت بينك وبين شريكك الصحبة، فعليك حقوق يوجبها عقد الصحبة، وفي القيام بها آداب، وقد قال ﷺ: «مَثَلُ الأَخَوَيْنِ مَثَلُ اليَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى»(١) . ودخل ﷺ أَجَمَةً، فاجتنى منها سواكين، أحدهما معوج، والآخر مستقيم، وكان معه بعض أصحابه، فأعطاه المستقيم، وأمسك لنفسه المعوج، فقال: يا رسول الله أنت أحق مني بالمستقيم، فقال ﷺ: «ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من نهار إلا وسئل عن صحبته، هل أقام فيها حق الله تعالى أو أضاعه»(٢) . وقال ﷺ: «ما اصطحب اثنان قط إلا وكان أحبهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه»(٣) .

وآداب الصحبة: الإيثار بالمال، فإن لم يكن هذا، فبذل الفضل من المال عند الحاجة، والإعانة بالنفس في الحاجات، على سبيل المبادرة من غير احواج إلى التماس، وكتمان السر، وستر العيوب، والسكوت على تبليغ ما يسوؤه من مَذَمَّةِ الناس إياه، وإبلاغ ما يسره من ثناء الناس عليه، وحسن الإصغاء عند الحديث،

(١) ورد في (إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين): رواه أبو نعيم في (الحلية) من حديث سلمان بلفظ: «مَثَلُ المُؤْمِنُ وَأَخِيهِ كَمَثَلِ الكَفَّيْنِ تُنَقِّي إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى».

(٢) رواه الحافظ السيوطي وخَرَّجَه في بعض رسائله.

(٣) رواه وخَرَّجَه الحافِظ.

وترك المماراة فيه، وأن يدعوه بأحب أسمائه إليه، وأن يُثني عليه بما يعرف من محاسنه، وأن يشكره على صنيعه في وجهه، وأن يذب عنه في غيبته، إذا تعرض لعرضه كما يَذُبُّ عن نفسه، وأن ينصحه باللطف والتعريض إذا احتاج إليه، وأن يعفو عن زلته وهفوته، فلا يعتب عليه، وأن يدعو له في خلوته في حياته وبعد مماته، وأن يُحسن الوفاء مع أهله وأقاربه بعد موته، وأن يؤثر التخفيف عنه، فلا يكلفه شيئًا من حاجته، ويروح قلبه من مهماته، وأن يظهر الفرح بجميع ما يرتاح له من مساره، والحزن بما نياله من مكارهه، وأن يضمر في قلبه مثل ما يظهره، فيكون صادقا في وده سرًّا وعلانيةً، وأن يبدأه بالسلام عند إقباله، وأن يوسع له في المجلس ويخرج له من مكانه، وأن يشيعه عند قيامه، وأن يصمت عند كلامه حتى يفرغ من خطابه، ويترك المداخلة في كلامه. وعلى الجملة، فيعامله بما يحب أن يعامل به، فمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه فأخوته نفاق، وهي عليه في الدنيا والآخرة وَبَالٌ. فهذا أدبك في حق العوام المجهولين، وف يحق الأصدقاء المؤاخين.

❁❁❁

﴿آداب العلاقة بالمعارف﴾

وأما القسم الثالث، وهم المعارف: فاحذر منهم؛ فإنك لا تر الشر إلا ممن تعرفه، أم الصديق فيعينك، وأما المجهول فلا يتعرض لك، وإنما الشر كله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم.

فأَقْلِلْ من المعارف ما قدرت، فإذا بليت بهم في مدرسةٍ أو مسجدٍ أو جامعٍ، أو بلدٍ، أو سوقٍ، فيجب ألا تستصغر منهم أحدًا، فإنك لا تدري لعله خير

منك، ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم فتهلك؛ لأن الدنيا صغيرة عند الله تعالى، صغير ما فيها. ومهما عظم أهل الدنيا في قلبك، فقد سقطت من عين الله تعالى، وإياك أن تبذل لهم دينك لتنال به من دنياهم؛ فلا يفعل ذلك أحد إلا صَغُرَ في أعينهم ثم حُرِمَ ما عندهم.

وإن عادوك فلا تقابلهم بالعداوة، فإنك لا تطيق الصبر على مكافأتهم، فيذهب دينك في عداوتهم، فيطول عناؤك معهم، ولا تسكن إليهم في حال إكرامهم إياك وثناؤهم عليك في وجهك وإظهارهم المودة لك؛ فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة واحدًا. ولا تطمع أن يكونوا لك في السر والعلن واحدًا، ولا تتعجب إن ثلبوك في غيبتك ولا تغضب منه؛ فإنك إن أنصفت وجدت من نفسك مثل ذلك، حتى في أصدقائك وأقاربك، بل في أستاذك ووالديك؛ فإنك تذكرهم في الغيبة بما لا تشافههم به، فاقطع طمعك عن مالهم وجاههم ومعونتهم؛ فإن الطامع في الأكثر خائب في المآل، وهو ذليل لا محالة في الحال.

وإذا سألت واحدًا حاجة فقضاها، فاشكر الله تعالى واشكره، وإن قَصَّرَ فلا تعاتبه، ولا تشكه فتصير عداوة، وكن كالمؤمن يطلب المعاذير، ولا تكن كالمنافق يطلب العيوب، وقُلْ: لعله قصر لعذر له لم أطلع عليه.

ولا تعظنَّ أحدًا منهم ما لم تتوسم فيه أو مخايل القبول، وإلا لم يستمع منك وصار خصمًا عليك، إذا أخطئوا في مسألة، وكانوا يأنفون من التعلم منك، فلا تعلمهم؛ فلا تعلمهم؛ فإنهم يستفيدون منك علمًا ويصبحون لك أعداء، إلا إذا تعلق ذلك بمعصية يقارفونها عن جهلٍ منهم، فاذكر الحق بلطف من غير عنف.

وإذا رأيت منهم كرامةً وخيرًا، فاشكر الله الذي حَبَّبَكَ إليهم. وإذا رأيت منهم شرًا، فَكِلْهُم إلى الله تعالى، واستعذ بالله من شرهم، ولا تعاتبهم، ولا تقل لهم: «لِمَ لَمْ تعرفوا حقي؛ وأنا فلان بن فلان، وأنا الفاضل في العلوم!»، فإن ذلك من كلام الحمقى، وأشد الناس حماقة من يزكي نفسه ويثني عليها.

واعلم أن الله تعالى لا يسلطهم عليك إلا لذنبٍ سبق منك، فاستغفر الله من ذنبك، واعلم أن ذلك عقوبة من الله تعالى. وكُنْ فيما بينهم سميعًا لحقهم، أصم عن باطلهم، نطوقًا بمحاسنهم، صموتًا عن مساويهم، واحذر مخالطة متفقهة الزمان، لا سيما المشتغلين بالخلاف والجدال. واحذر منهم؛ فإنهم يتربصون بك لحسدهم ريب المنون، ويقطعون عليك بالظنون، ويتغامزون وراءك بالعيون، ويحصون عليك عثراتك في عشرتهم، حتى يجبهوك بها في حال غيظهم ومناظرتهم، لا يقيلون لك عثرة، ولا يغفرون لك زلة، ولا يسترون لك عورة، يحاسبونك على النَقِير والقطمير، ويحسدونك على القليل والكثير، ويحرضون عليك الإخوان بالنميمة والبلاغات والبهتان، إن رضوا فظاهرهم الملق، وإن سخطوا فباطنهم الحنق، ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب.

هذا ما قطعت به المشاهدة على أكثرهم، إلا من عصمه الله تعالى؛ فصحبتهم خسران، ومعاشرتهم خذلان. هذا حكم من يظهر لك الصداقة، فكيف من يجاهرك بالعداوة! قال القاضي ابن معروف رحمه الله تعالى:

فَاحـــذَر عَدوكَ مَرَة وَاحـــذَر صَديقَكَ أَلفَ مَرَة
فَلَرُبَمَا اِنقَلَبَ الصَديقُ فَكَــانَ اَعـــرَفَ بِالمَضَـرَة

وكذلك قيل في المعنى:

عَدوُكَ مِن صَديقِكَ مُستَفاد فَلا تَستَكثِرنَ مِنَ الصَحَابِ
فَإِنّ الداءَ أَكثَرَ ما تَراهُ يَكون مِنَ الطَعامِ أو الشَرابِ

وكُنْ كما قال هلال بن العلاء:

لَما عَفوتَ وَلَم أَحقِد عَلى أَحدٍ أَرَحْتَ نَفسي مِن هُم العَداواتِ
إِني أَحيي عَدوي عِندَ رُؤيَتِهِ لأَدفَعَ الشَرَّ عَني بِالتَحياتِ
وَأَظهَر البَشَر لِلإِنسانِ أَبغُضُهُ كَأَن قَد مَلا قَلبِي مَرَّاتِ
وَلسَتُ أَسلَمَ مِمَن لَستُ أَعرِفُهُ فَكَيفَ أَسلَمُ مِن أهلِ المَوَدَّاتِ
الناسُ دَاء دَواءِ الناسِ تَركُهُم وَفي الجَفاءِ لَهُم قِطَعُ الأَخَوَاتِ
فَسالِم الناسَ تَسلَمَ مِن غوائِلِهِم وَكُن حَريصًا عَلى كَسْبِ التَقِيَّاتِ
وَخالِق الناسَ وَاصبِر ما بُلَيتَ بِهِم أَصَمُّ أَبَكَمٌ أَعْمَى ذا تَقِيَّاتِ

وكن أيضًا كما قال بعض الحكماء: الق صديقك وعدوك بوجه الرضا، من غير مذلة لهما ولا هيبة منهما، وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة، وكن في جميع أمورك في أوسطها، فكلا طرفي الأمور ذميم، كما قيل:

عَلَيكَ بِأَوسـاطِ الأَمورِ فإِنّها	طَريقٌ إِلى نَهجِ الصِراطِ قَويمُ
وَلا تَكُ فيها مُفرَطًا أَو مُفرَطًا	فَإِنّ كِلا حالِ الأُمورِ ذميمُ

ولا تنظرْ في عطفيك، ولا تُكْثِرْ إلى ورائك الالتفات، ولا تقفْ على الجماعات، وإذا جلست فلا تستوفز، وتحفظ من تشبيك أصابعك، وكثرة بصاقك وتخمك، وطرد الذباب عن وجهك، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس في الصلاة وغيرها، وليكن مجلسك هادئًا، وحديثك منظومًا مرتبًا، واصغْ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات، ولا تحدث عن إعجابك بولدك وشعرك وكلامك وتصنيفك وسائر ما يخصك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذل العبد، وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع أحدًا على الظلم، ولا تعلم أحدًا من أهلك وولدك فضلًا عن غيرهم مقدار مالك؛ فإنهم إن رأوه قليلًا، هُنْتَ عليهم، وإن رأوه كثيرًا، لم تبلغْ قط رضاهم، واجفهم من غير عنف، ولِنْ لهم من غير ضعف، ولا تهازل أَمَتَك ولا عبدك، فيسقط وقارك من قلوبهم، وإذا خاصمت فتوقر، وتحفظ من جهلك وعجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الاشارة بيدك، ولا تكثر الالتفاف إلى من ورائك، ولا تجث على ركبتيك، وإذا هدأ غضبك فتكلم. وإذا قَرَّبَك السلطان، فكُنْ منه على حد السنان، وإياك وصديق العافية؛ فإنه أعدى الأعداء، ولا يجعل مالك أكرم من عرضك.

وهذا القدر يا فتى يكفيك من بداية الهداية، فجرب بها نفسك، فإنها ثلاثة أقسام: (قسم آداب الطاعات)، و(قسم في ترك المعاصي)، و(قسم في مخالطة الخلق)، وهي جامعة لجمل معاملة العبد مع الخالق والخلق.

فإن رأيتها مناسبة لنفسك، ورأيت قلبك مائلًا إليها راغبًا في العمل بها، فاعلم أنك عبد نوَّر الله تعالى بالإيمان قلبك، وشرحَ به صدرك، وتحقق أن لهذه البداية نهاية، ووراءها أسرارًا وأغوارًا وعلومًا ومكاشفات، وقد أودعناها كتاب (إحياء علوم الدين)؛ فاشتغل بتحصيله.

وإن رأيت نفسك تستثقل العمل بهذه الوظائف، وتنكر هذا الفن من العلم، وتقول لك نفسك: «أنَّى ينفعك هذا العلم في محافل العلماء، ومتى يُقدمك هذا على الأقران والنظراء؟ وكيف يرفع منصبك في مجالس الأمراء والوزراء؟ وكيف يوصلك إلى الصلة والأرزاق وولاية الأوقاف والقضاء؟» فاعلم أن الشيطان قد أغواك وأنساك متقلبك ومثواك، فاطلب لك شيطانًا مثلك، ليعملك ما تظن أنه ينفعك ويوصلك إلى بغيتك. ثم أنه قط لا يصفو لك الملك في محلتك، فضلًا عن قريتك وبلدتك، ثم يفوتك الملك المقيم والنعيم الدائم في جوار رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والحمد لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصَلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

[انتهت رسالة بداية الهداية]

■■ الرحلة ٤ ■■

٤

القواعد العشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(خطبة الرسالة)

الحمد لله الموفق، الذي وفق قلوب الأحباب لموافقة مراسيم السُّنة وأحكام الكتّاب، الفتاح الذي فتح بصائر أبصارهم فأبصروا مواقع نبال الارتياب في مقاتل أهل الحجاب، الملهم الذي ألهمهم الحجة البيضاء بالمحجة الخضراء فأصابوا أبكار الصواب، ناداهم بلسان شأن المحبة من جنان المودة كيف ينام المحب عن مشاهدة الأحباب! فأكحلوا نواظرهم بإثمد السهاد، وجفوا من مضاجعهم أطيب الرقاد، وجَدّوُا في أثر الإطلاب مع الطلاب، وجعلوا نهارهم ليلًا، وأفراحهم ويلًا، وأرخوا لعِزِّ مولاهم ذيلًا، وتذللوا على الأعتاب، فأقامهم في الحاضرة والبادية، وأسمعهم أوامره ونواهيه، فيا سعادتهم بتوفيقهم لوقوفهم على الأبواب!

وكشف لهم الحجاب عن جماله، وكشط الضباب عن محاسن أثواب مقاله، فرُدُّوا حيارى بمحاسن الأتراب. أُجِرُوا مدامعهم جريان الأنهار، وأبدوا فجائعهم عن

زمن تولى من جر الإزار على الأوزار، وطرقوا الباب فأتاهم الجواب: يا عبادي أنا التواب على من أقلع عن الحوبة وإليّ أناب.

روّق لهم في دار الوصال شراب الاتصال، فناهيك به من شراب! فتلذذوا بمناجاته، وغابوا عن حضورهم في حضراته، وغدا كل بعقله المصاب. فأين المهاجر في الهواجر، ومن أكحل المحاجر بالخناجر؛ طوباه قد فاز بطيب الخطاب.

قد كشف المولى منيع الحجاب ... وأسمع الأحباب طيب الخطـــاب

وأحضروا حضــرة أنس بها ... غابوا فعاشوا بعد مـــوت العقاب

وفي مقام القــرب أدناهم ... لما سقاهم في المقام الشـــراب

وأتحفوا من فضـــله بالوفا ... محضًا من الأمن أجـــل الكتـــاب

هم الملـــوك الشّمّ من خلقه ... ضنائن الحـــــــق لعَزَّ الجـــاب

قد تبعوا نهج سبيل الهــدى ... واتّبعوا حكم نصـــوص الكتـــاب

واستمسكوا بسنَّة خير الورى ... وحاسبوا من قبيل يـــوم الحســـاب

وناقشـــوا أنفسهـــم خيفة ... من غضب الحـــق وهول العقـــاب

إذا أتى الليل تراهــــم به ... فرحى لجمع الفـــرق تحت النِّقـــاب

يحيونه بالذّكِـــر كي يحييهم ... بذكره في جمع أهـــــل الثَّــــواب

يراهم الحقّ يبـــاهي بهـم بهم عن الخلـــق يزول العـــذاب

عليهم منّي ســـــلام سما ما لمع البرق أو أهـــل السَّحـــاب

أحمده حمدًا أستوجب به الثواب، وأشكره شكرًا تزيد به زيادات أولي الألباب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنزهه عن الحلول والانحياز، والظهور، والبطون، والابتداء، والانتهاء، والاشتهار، والاحتجاب؛ وتقدست ذاته المقدسة عن مقالات أولي الجهالات من الكم والكيف والأين والمكان والزمان والإياب والذهاب، وأُمَجِّده بما أبرزه بحكمته من الأكوان عن التفكر والتدبر والمعاونة والمشاورة والراحة والنصب والانتصاب، وأُعَظِّمه عن التشبيه والتمثيل والتعديل والتحويل والتبديل والتركيب والارتكاب. وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أشرف محبوب، وأعظم الأشراف، وأخص الأحباب؛ أرسله بفضل الكتاب وفصل الخطاب، وأيده بأفضل كتاب وأجمل خطاب؛ أفصح فصحاء الأعراب بالإعراب، والاختصار والإسهاب، وأعجزَ بلغاء الأحزاب ببدائع النفي والإيجاب، فأنقذ الأحباب من مهاوي الارتياب ومغاوي الأعراب بالعقاب على الأعقاب، وكشف عن وجه نور الإسلام مكفرات ظلمات الإشراك والضباب؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والأحباب، وعلى الخلفاء الراشدين الأقطاب: أبي بكر وأبي حفص وأبي عمرو وأبي تراب، صلاة تحلنا دار النعيم وتخرجنا عن دار العذاب.

❁❁❁

(نص الرسالة)

أما بعد، نفحنا الله وإياك بنسائم قربه، وسقانا وإياك من كاسات حبه، فإن بيان كيفية طريقنا، وبرهان أهل تحقيقنا، مبني على عشرة قواعد توقظ النائم وتقيم القاعد:

﴿القاعدة الأولى﴾

النية الصادقة الواقعة من غير التواء، لقوله عليه الصلاة والسلام: «وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1] .

والمراد بالنية عزم القلب، وبالصادقة إنهاؤها للفعل والترك للرب، وبالواقعة استمرارها على هذه الخلة الأثيرة؛ لأن للتكرار تأثيرًا ليس لغيره، وعلامتها: عدم تغيير جزمه بأعراض فانية وباقية في عزمه، فإن العمل للحق ولا بد من الحق فلا يترك ما عزم عليه للخلق.

(١) صحيح البخاري – كتاب بدء الوحي – باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – حديث رقم ١، والحديث من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿القاعدة الثانية﴾

العمل لله من غير شريك ولا اشتراك لقوله عليه السلام: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١) ، وعلامته أن لا يرضى بغير الحق، ويرى ما سواه قاطعًا، فيجتنب الخلقَ لقول النبي المختار: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ» (٢).

وليترك لله سبحانه وتعالى جميع أمانيه، لقوله عليه السلام: «مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ» (٣)، وآكدها الشبهات فاحذرها أن تصيبك، لقوله عليه السلام: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ» (٤).

فإذا صحت هذه الأصول الثلاثة، أثمرت أغصانها لك القربى، فتكون بالصورة في الدنيا وبالمعنى في العُقبى، وعلى قدر همك وثباتك على الفعل والترك،

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الأيمان – باب سؤال جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي صلى الله عليه وسلم له – حديث رقم ٥٠، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الجهاد والسير – باب الحراسة في الغزو في سبيل الله – حديث رقم ٢٩٢٤، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سنن الترمذي – كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – حديث رقم ٢٤٨٧، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سنن الترمذي – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – حديث رقم ٢٧٠٨، والحديث من طريق الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

تحظى من الحديث المشهور: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ» (١).

وعلامة القناعة: الاكتفاء بما يُذْهِب الحر والبرد والمسغبة لقوله ﷺ: «حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكْلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ» (٢)، فلا يميل إلى صاحب القمح صاحب الشعير، وإلى النقرة صاحب النقير. والمستغني بالحلال لا يقصد المباح، ولا يخفض إلى الشبهة الجناح. وعلامة الغريب الحمل الخفيف، وعدم الائتلاف بالثقيل، وترك السؤال فإنه يؤوي إلى ظل الدخيل. وعلامة عابر السبيل: إسراع الإجابة، ورضاه بما سبق إليه واستطابه. وعلامة الميت: إيثار مهمات دينه والمسألة في غوالب حينه.

﴿القاعدة الثالثة﴾

موافقة الحق بالاتفاق والوفاق ومخالفة النفس بالصبر على الفراق والمشاق، وترك الهوى، وجفاء الملاذ والمكان والخلاف. ومن تعوده خرج عن الحجاب، ودخل في الانكشاف، فعاد نومه سهرًا، واختلاطه عزلةً، وشبعه جوعًا، وعزته ذلةً، ومكالمته صمتًا، وكثرته قلةً.

(١) سنن الترمذي – كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب ما جاء في قصر الأمل – حديث رقم ٢٥٠٣، والحديث من طريق عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٢) مسند الإمام أحمد – مسند الشاميين رضي الله عنهم – حديث المقدام بن معد يكرب الكِندي أبي كريمة عن النبي صلى الله عليه وسلم – حديث رقم ١٧٤٥٩، والحديث من طريق ابن معد يكرب الكِندي.

﴿القاعدة الرابعة﴾

العمل بالاتباع لا الابتداع، لئلا يكون صاحب هوى، ولا يزهو برأيه زهوًا، فإنه لا يفلح من اتخذ لنفسه في فعله وليًّا بقوله عليه السلام: «عليكم بالسمع والطاعة ولو كان عبدًا حبشيًّا» (١).

﴿القاعدة الخامسة﴾

الهمة العليَّة عن تسويف يفسدك؛ فقد جاء: «لا تترك عمل يومك للغد»؛ لأن بعض الأعمال من بعضها، وإلا فمن رَضِيَ بالأدنى، حُرِمَ الأعلى. والكاملُ المُتَّبِعُ هو السُّنِّيُّ لا المتشيع والمعتزل والمبتدع، لقوله عليه السلام: «يا أحبابي عليكم بالسواد الأعظم»، قالوا: «يا رسول الله، وما السواد الأعظم؟» قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

﴿القاعدة السادسة﴾

العجز والذلة؛ لا بمعنى الكسل في الطاعات وترك الاجتهاد، بل عجزك عن كل فعل إلا بقدرة الحق الجواد، وأن ترى الخلق بعين التوقير والاحترام، فإن بعضهم وسائط بعض، إجلالًا لحضرة ذي الجلال والإكرام؛ لأن سنة الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا ما، أضافه إليه بنفي الوسائط، وإن أراد جلال حضرته تعظيمًا،

---

(١) ورد في سنن أبي داود بلفظ: (أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا). سنن أبي داود – كتاب السُّنة – باب في لزوم السُّنة – حديث رقم ٤٦٠٩، والحديث من طريق عِرباض بن سارية أبو نجيح السلمي.

أضافه لغيره رعاية للضوابط. فإذا علمت أن الكل بيد الله ﷻ والمرجع إليه وتكبَّرت، فقد تكبرت عليه إلا بأمر وصل إليك من لديه. فاجعل عجزك في جنبه ومسكنتك له بالاعتذار، ولا تتصور قدرة لك فإنها منازعة في الاقتدار.

﴿القاعدة السابعة﴾

الخوف والرجاء معنى، وعدم الاطمئنان بجلال الإحسان إلا عند العيان، فحسن ظنك منك بالجواد الحسان.

﴿القاعدة الثامنة﴾

دوام الورد إما في حق الحق أو حق العباد، فإن من ليس له ورد فماله من الموارد إمداد، فالمديم يمل والحق يمل بملاله بخلاف الذي يغيث بأعماله وأقواله، فإن النفس تنبسط بذلك جهراً وسرًّا. وتراعي حقوق العباد كما يُتَوَقَّعَ منهم خيرًا وشرًّا، فيُحِبُّ ويبْغِضُ لهم ما يحب ويبغض لنفسه خيرًا وشرًّا، ويعمل لله تعالى ما يرضى كما يحب أن يفعل الله ما يرضى.

﴿القاعدة التاسعة﴾

المداومة على المراقبة ولا يغيب عن الله ﷻ طرفة عين؛ فمن داوم على مراقبة قلبه لله سبحانه وتعالى ونفى غير الله، وَجَدَ الله وإحسانه وعلم اليقين. يحصل ذلك لك بجملته وهو أن ترى الحركات والسكنات والأعيان بتحريكه وتسكينه وقدرته

سبحانه لا يستغنى عنه شيء، ثم تزيد مراقبته إلى أن تترقى إلى علم اليقين، ثم تفنى عن ذلك به، وذلك حقيقة اليقين فيقول: «ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه ﷻ، هو القيوم على كل شيء بقيوميته، وذلك الشيء هو القائم بأمره وبقدرته على حسب المشاهدة والمحاضرة»، فتأدب مع الخلق وعاشر أحسن المعاشرة؛ قال ﷺ: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي» (١).

﴿القاعدة العاشرة﴾

علم ما يجب الاشتغال به ظاهرًا وباطنًا اجتهادًا؛ لأن من ظن أنه استغنى عن الطاعة فهو مفلس معادًا لقوله سبحانه لا رب إلا سواه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (٢).

﴿الخاتمة﴾

فهذا ما بنيت على أعمدة قواعده قصورًا من غير قصور، وأسست عليه شوامخ الحجار لربات الحجور، وحَرَثْتُه بمحراث فدن، وبذرته بصنوف حبوب السعادة،

(١) قال فضيلة الشيخ عطية صقر في فتوى له: (فمعنى الحديث صحيح، ولكن سنده ضعيف، وإن صححه أبو الفضل بن ناصر ونرجو أن نتنبه إلى الفرق بين صحة الكلام في حد ذاته وبين نسبته إلى النبي ﷺ فنحن نؤمن بأن الله أدبه أحسن تأديب، ولكن لا نثق في أن هذا الكلام صدر عنه، وقد ﷺ من نسبة شيء إليه قولًا أو فعلًا أو وصفًا فقال: «من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري ومسلم. ويستوي في حرمة الكذب عليه ما كان القصد منه حسنًا وغير حسن). انظر كتاب (الفتاوى الإسلامية من دار الإفتاء المصرية).

(٢) سورة آل عمران: ٣١

وغرست في فرادسه الأذكار، وأجريت في جناته من الأوراد والأنهار، وفرشته بشقائق نعمان المجاهدة، ومهدته بحدائق حقائق المكابدة، راجياً حصاد زرعي بمناجل الهمم، وقاصداً غنيمة إنفاقي من مواهب الكرم، والله تعالى يزكيه ويربيه، ويرتع فيه من ظهر فيه، ومن التحق به ممن يحييه، إنه الجواد الكريم البر الرحيم.

والسلام على من اتبع الهدى، فما ابتدع ونفع وانتفع ولحق بعباد الله الصالحين وحزبه المفلحين ورحمته وبركاته. وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على سيدنا مُحَمَّدٍ نور أنوار المعارف وسر أسرار العوارف، وعلى آله وصحبه وتابعي سبيله وحزبه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتعم البركات، آمين.

[انتهت رسالة القواعد العشرة]

فهرس المحتويات

تقديم ٤

الرحلة ٣: بداية الهداية ٧

خطبة الرسالة ٩

نص الرسالة ١٤

القسم الأول في الطاعات

توطئة ١٤

١. فصل في آداب الاستيقاظ من النوم ١٥

٢. باب آداب دخول الخلاء ١٥

٣. باب آداب الوضوء ١٧

٤. آداب الغسل ٢٠

٥. آداب التيمم ٢١

٦. آداب الخروج إلى المسجد ٢٢

٧. آداب دخول المسجد ٢٢

٨. آداب ما بعد طلوع الشمس إلى الزوال ٢٨

٩. آداب الاستعداد لسائر الصلوات ٣٢

١٠. آداب النوم ٣٥

١١. آداب الصلاة ٣٨

١٢. آداب الإمامة والقدوة ٤٣

١٣. آداب الجمعة ٤٤

١٤. آداب الصيام ٤٧

القسم الثاني القول في اجتناب المعاصي

توطئة ٥٠
١. آداب العين ٥٢
٢. آداب الأذن ٥٢
٣. آداب اللسان ٥٣
٤. آداب البطن ٥٩
٥. آداب الفرج ٦١
٦. آداب اليدين ٦١
٧. آداب الرجلين ٦٢
القول في معاصي القلب ٦٤
١. الحسد ٦٥
٢. الرياء ٦٦
٣. العُجب والكِبر والفخر ٦٧
حديث جامع في معاصي القلب ٦٨

القسم الثالث القول في آداب الصحبة

١. آداب الصحبة مع الله ٧٣
٢. آداب العالِم ٧٤
٣. آداب المتعلم ٧٥
٤. آداب الولد مع الولدين ٧٥

٥. أصناف الناس في العلاقة بالمرء ٧٦
٦. آداب العلاقة بالعوام المجهولين ٧٦
٧. آداب العلاقة بالإخوان والأصدقاء ٧٦
٨. آداب العلاقة بالمعارف ٨١
٩. آداب عامة جامعة ٨٥
الخاتمة ٨٥
الرحلة ٤: القواعد العشرة ٨٧
خطبة الرسالة ٨٩
نص الرسالة ٩٢
الخاتمة ٩٧